

روايات رومانسية عالمية
عبر



ماري ويبرلي

الوجه الآخر للذئب



مكتبة نغمات

الوجه الآخر للذئب

عاشت جين

في كنف خالتها دورثي من غير
ان تعلم شيئا عن والدها سوى ما أخبرتها اياه
الخاله وهو ان هذا الاب القاسي الاناني تخلى عنها. منذ
١٢ سنة وغادر البيت الى غير رجعه. وفجأة عرفت جين ان
والدها لم يتخل عنها، وانه كان يرسلها باستمرار من دون ان تصلها
ايه رسالة. الى ان وقعت على الرسالة الاخيرة التي يدعوها فيها الى
زيارته في جزيرة (سارامنكا) وفي المطار اصطدمت جين بمشهد ألما: رجل
ضخم الجثة يصرخ في امرأة صينية مسنة. واثنان من اتباع الرجل يأخذانها
الى جهه مجهولة. وتشاء الصدفة ان تلتقى جين الرجل نفسه بعد وصولها
الى الجزيرة. وفي بيت ابيها بالذات.. وتتكرر المصادفات وكذلك اللقاءات.
وفي كل لقاء كانت جين فريسة احاسيس متناقضة تجاه الرجل الذي
ارعبها تصرفه في المطار. من هو هذا الرجل، وما هي حقيقة قصه
المرأة الصينية.. وما هو الدور الذي يلعبه السيد غرانت في
الجزيرة.. وكيف انتهى الصراع الطويل المرير بين جين
والرجل القوي؟

ميكائيل جحران

١ - أنا آتية يا ابي

أول ما شاهدت جين هذا الرجل نفرت منه وقضت شفقتها وسارعت الى المجلة المفتوحة فوق ركبتيها محاولة أن تحجب عن أذنيها ضجة الاصوات المرتفعة في مبنى المطار الذي تشوبه لسعة الحرارة في المرحلة النهائية من رحلتها الى جزيرة سارامانكا . كانت الحالة دورثي تبعد عنها آلاف الأميال ، هناك في انكلترا ، وبرغم ذلك كانت كلما تظن في اذنيها : لن تستطيعي ان تعيشي وسط هذا اللجيج .

لم تكن هناك فائدة . فقد كان من المستحيل تجاهل ذلك المشهد كما كان من المستحيل تجاهل الحالة دورثي وقد انطلقت في انفعال . رفعت جين رأسها على مضض ونظرت ثانية الى الرجل المتسبب في تلك الضجة . كانت قامته أطول من الآخرين ، وشامخاً أمام بعض الموظفين ، وأمام المرأة الصينية المنحنية متشبثة بحقيبتها الكرتونية الرثة . كان هناك أيضا عدد من المتفرجين الذين شدقهم ذلك المشهد . كان الرجل غاضباً وبرغم هذا لم يكن صوته مرتفعاً . بيد أنه عندما كان يتكلم ، كان يفعل كمن له سلطان ، وكان الآخرون يسمعون لفته وجيزة ، ليتحركوا من جديد ملوحين بأيديهم ، وجبينهم مكنود في يأس

واضح. لم تكن لدى جين أدنى فكرة عما يدور. المرأة الصينية يعلو هامتها المشيب، هادئة بجلال غريب وسط ذلك الهياج:

«يبدو أننا سنظل هنا الى أن تنتهي المشكلة».

رفعت رأسها سريعاً لتنظر الى الرجل في جوارها. يبدو أنه أميركي، وقد تدلت آلة تصوير من عنقه فوق قميص منقوش بأزهار تحطف البصر:

«نعم، برغم أنني لا أعرف السبب».

الرجل كان في الستين من عمره، بشرته سمراء وشعره كستنائي وعيناه بنيتان. جلس في جوارها، وقد اعتبر ردها دعوة صريحة لتبادل الحديث وقال:

«يبدو أن ذلك الشخص الضخم يعترض على أن تستقل السيدة الصينية الطائرة الى سارامانكا، أو على الأقل هذا هو الانطباع الذي كونه».

نظرت عبر القاعة نحو الرجل. ترى ماهي فرصة مثل تلك المرأة المسكينة للوقوف أمام رجل كهذا؟ من الواضح أنه لا توجد فرصة على الإطلاق. ثم بدأ الجمع يتفرق. واقتاد أحد المسؤولين المرأة بعيداً تاركاً إياها تحمل حقيبتها بنفسها.

«ما اقل ذوقه...»

لم تكن تعي أنها تحدثت بصوت مسموع الى أن رأت الرجل الجالس جوارها يلوي قسماً وجهه في شبه ابتسامة.

«أنه يبدو كرجل قادر أن يصل الى ما يريد».

وقدم لجين بطاقته :

«دعيني أقدم نفسي. جاكسون تى ميلار. يمكنك الاحتفاظ بها هل أنت ذاهبة الى سارامانكا»

«نعم، في أجازة».

ترددت جين عند لفظها الكلمة الأخيرة. فليس في وسعها أن تشرح لهذا الغريب عن أسباب سفرها.

«ساحضر بعض المرطبات. ما هو شرايك المفضل؟»

ترددت جين ولكنها ابتلعت مخاوفها وقالت بخجل:

«أي شيء مثليج من فضلك. اسمي جين. جين ريتشي».

«إني مسرور بلقائك يا جين. فأنا لا أحصل كل يوم على فرصة التحدث مع فتاة جميلة».

إختفى وسط الناس، الذين بدأوا يتحركون الآن تحركاً طبيعياً بعد أن انتهى الحدث المثير. إختفى الرجل الضخم، لكن أحست جين برعشه خفيفة لم تره إلا عن بعد مع ذلك تلقت إنطباعاً بأن قوة قاسية تنبعث منه. الرجل شديد السمرة وقد لفحته الشمس، يرتدي بزة بلون الطبي الصغير من قماش خشن. لن تراه ثانية، هذا شيء يسعدها. بدأ يتنقش قدر من اليأس الذي خيم على جين قبل أن تترك لندن منذ ساعات. فهي لم تقدم على شيء خاطيء على الإطلاق. كل شيء سيسير على مايرام، برغم تنبؤات الحالة دورني المليئة بالتشاؤم.

تطلعت جين أمامها، لكنها لم تر ذلك الحشد، ولم تسمع تلك الشرثرة الحادة المتنوعة اللغات فللحظات عادت بذاكرتها الى لندن لتعيش من جديد الصدام المرير مع خالتها.

«أنها فرصتك الأخيرة. اذا ذهبت فلن تعودني الى هنا ابداً».

كانت الحالة دورتي تقف في جوار النافذة مولية ظهرها لجين .
وحين إستدارت ببطنها كانت هناك بقعتان مشتعلتان فوق وجنتيهما
وأحسّت جين بوخزة تسري فيها بقوة لعلها من الشعور بالاشفاق. اذ
فجأة رأت عمتها على حقيقتها، امرأة وحيدة في خريف عمرها تشعر
بالمراة وهي ترى ابنة أختها تتحذاها للمرة الأولى في حياتها.

«خالتي دورتي. اعلم أنك كنت كريمة للغاية عندما سمحت لي بأن
أعيش معك السنوات الست الأخيرة وأنا اقتر كل ما فعلته من أجلي.
ولكن ألا تستطيعين أن تتفهمني موقفي. أريد أن اشاهد والذي ألا
يمكنك أن تحاولي ان تقدرتي وضعي؟»

«كنت في السادسة من عمرك. عندما هجر والدك البيت ولم يسأل
عنك. ماذا تتذكرين قولي ؟ لا شيء. لم يكن يصلح لشيء. ولن يصلح
أبدا.»

كانت يدا الحالة دورتي متشبثتين بظهر المقعد وقد بدت مفاصلهما
بيضاء من التوتر ووجهها شاحبا.

هزت جين رأسها وهي تقول :

«بعثت الي برسائل مرات عدة. دون ان تصلني واحدة منها. ولو لم
يكشف لي ساعي البريد الى مصادقة لما علمت بذلك . لماذا اخفيت
الرسائل عني؟»

«فعلت ذلك من اجلك انت. لم أكن أريد أن أزعجك.»

«كانت الرسائل لي . لم يكن من حقل أن تخفيها عني.»

«كان لي كل الحق. انت تعيشين في بيتي وفي حمايتي.»

ضغطت جين على الرسالة الأخيرة التي تمّدها بالشجاعة لم تعد

تخشى الآن تلك المرأة التي سيطرت على حياتها منذ كانت في الثانية
عشرة من عمرها. منذ وفاة أمها.

«أنا لم أدرك الى أي حد كنت مستاءة لبقائي معك. أنا آسفة ولكنني
سأبذل قصارى جهدي لأعوضك عما بذلت. سأعمل في عطلة نهاية
الاسبوع إبان دراستي في كلية المعلمات.»

أمسكت عن الكلام بعدما رأت وجه خالتها الغاضب المتجهّم.
إندفعت الدموع الى عينيها. أحست بصدمة حين إكتشفت فجأة أن
خالتها تضمن عليها بتلك الرعاية التي منحتها إياها طوال تلك
السنين. والآن اتخذت جين قرارها. ولا عودة عنه. ليحدث ما يحدث
فهي ذاهبة لرؤية أبيها. انه لم يكن في حالة صحية تسمح له بالسفر
وإلا لكان حضر الى انكلترا. أبلغها ذلك في رسائله. رسائله التي ظلت
حبيسة صندوق مكتب خالتها. قرأتها جين جميعا: رسالة رسالتان
كل عام. من أماكن مختلفة من شتى أنحاء العالم. عدا الرسائل الأربع
الأخيرة. فجميعها أرسلت من جزيرة في المحيط الهندي. اسمها
سارامكا . كانت طوابع تلك الرسائل رانعه الجمال عليها صور
لطيور وأزهار غريبة بعثت جين على الفور برسالة الى العنوان
المثبت على متن الرسالة المهترئة. وجاءها الرد. بعد خمسة أيام. رسالة
مقتضبة: رسالتني في الطريق اليك وفيها نفقات الطائرة. إحضري
أرجوك.

مسحت جين دموعها. واستدارت تحمل حقائبها. لم يعد هناك
مجالات لأي حديث.

«هيا، إستبقظي يا حلوتي جين . ان الثلج يذوب.»
كلمات قليلة اعادت جين الى الواقع، لترى صديقها الجديد يرقبها
بابتسامة عريضة.

«أنا أسفة، سافرت مع تأملاتي الى بعيد»
أخذت الكوب المقدم اليها، شاكرة صديقها الاميركي، ثم مر في
جوار المائدة احد الخدام ليقول:

«ستقلع الطائرة بعد خمس عشرة دقيقة.»
قاومت جين احساساً بالذعر بدأ يهاجمها. لقد إقربوا الآن من
نهاية رحلتهم. ماذا لو كانت الحالة دورشي على حق : هل هي
متهورة حمقاء ؟ انطلقت الافكار في دوامه جنونية. ثلاث ساعات
أخرى ويصلون.

سألت رفيقها الاميركي :
«هل ذهبت قبل الآن الى سارامنكا ؟»
«نعم، مرة أثناء الحرب لا يمكنني ان انساها. وهذا هو سبب عودتي
اليها.»

«اخبرني عنها بالتفصيل.»
«أظن أنها مختلفة الآن، لكنها مكان فسيح قد يصل طولها الى ستين
ميلا. تبدو من الطائرة وكأنها سمكة عملاقة. خضراء جداً، نباتها
مورق وطبيعتها غنية بما يسحر ويربح.»

كانت في عينيه نظرة حاملة كأنه غجري منطلق مع فيشارته :
«نعم ياسيديتي، انها رائعة هناك ينمو قصب السكر على مدى أميال
وأميال.»

«هل أنت ذاهب في أجازة؟»

«يمكنك ان تسميها رحلة الى الماضي.»

توقف قليلاً ثم ابتسم وقال:

«ولكن ما الذي يجعل فتاة مثلك تقطع كل هذه المسافة وحيدة لتأتي
الى هنا.»

روت له جين بإيجاز قصة رسالة أبيها ودعوته المفاجئة لها.
«هذا شيء رائع. ألم تربيه منذ اثنتي عشرة سنة ؟ أراهن أنه سيكون
لقاءً رائعاً.»

عبر الميكروفون جاء صوت المذيعة الجاف :

«الرجاء من المسافرين الى سارامنكا التوجه الى الباب الرئيسي.»
جلست جين في قعد مجاور للنافذة محدقة في الحشد الصغير المتجمع
أمام مدخل الباب الرئيسي وأحست بالارتياح وهي ترقب ذلك الحشد
لأنه لم يكن هناك أثر لذلك الرجل الغريب الطويل القامة. أقلعت
عدة طائرات منذ أن حدث ذلك ذلك المشهد الكريه في المطار. من
المحتمل أن يكون قد استقل إحداها. لم يكن هناك أثر أيضاً للمرأة
الصينية. وتساءلت جين عما يكون قد حدث لها. إن منظر تلك المرأة
العجوز وهم يقودونها بعيداً لا يبرح مخيلتها . وعندما كانت على وشك
أن تدبر رأسها بعيداً عن النافذة لتحدث رفيقها المنهمك في دراسة
بعض الأوراق التي استخرجها من مخفظته، توقفت وأطلقت شهقة
وقالت :

«أوه - لا .»

«ماذا هناك ؟»

«أنظر»

أشارت جين الى رجل طويل يسير متمهلاً خارجاً من المبنى. كان هو ذلك الرجل نفسه، الذي تسبب في ذلك الصخب يسير الآن نحو الطائرة. كان قد خلع سترته، وجعلها فوق كتفه، كان يبدو وكأنه غير مهبال بأي شيء حوله.

«اعتقدت بأنه رجل»

«أنا أيضاً. هل قلت إن سارامانكا كبيرة؟»

«كبيرة بالقدر الذي يكفي لكي لا تصدمي به، إذا كان هذا مائعتينه من السؤال».

ضحك ضحكة خفيفة وقال :

«هل تكرهينه الى هذا الحد؟»

«أنا لا أحب أي شخص يستخدم ماله ونفوقه أو أي شيء ليستأسد على من هم أضعف منه».

«في عينيك بريق غامض، أتدريين أنك جميلة حقاً؟ تذكريني بابتنتي الصغرى»

تحسّن جيب سترته وأخرج محفظة سحب منها صورة بناته وزوجته، فراحت جين تلهي نفسها بمشاهدة الصور كيلا ترى الرجل الضخم الذي دخل الطائرة في اللحظة نفسها، جانباً رأسه ثم سار متجهاً نحوها.

«أنهن جميعاً جيلات».

قالت ذلك وهي تتجاهل المضيفة وهي تحوم حول الرجل الذي استقر في مقعد في مؤخرة الطائرة. وقد جرت بينها أحاديث لم يكن في

وسعها أن تسمعها

وعادت جين تتأمل افراد عائلة رفيقها الاميركي. عرفت ماذا كان يعني جاكسون بالتشابه بينها وبين ابنته. كانت الفتاة طويلة، ربما أطول قليلاً من جين. كان شعرها طويلاً مسترسلاً داكناً، كما كان هناك تشابه طفيف مع عيني الفتاة الواسعتين ذاتي الرموش الكثيفة. أعادت جين الصور مبتسمة. كانت برغم كل شيء متنبهة تماماً الى وجود الرجل الجالس خلفها. وحين دعي الركاب الى ربط الأحزمة استجابت بصورة تلقائية. قد تكون تلك هي المرة الأخيرة التي ستري فيها الرجل الضخم بعد مغادرة المطار. في أي حال ان ما يهمها الآن هو انها ذاهبة الى والدها. لفحتهم الحرارة وهم يغادرون الطائرة. تعثرت جين على السلم فأمسك جاكسون بذراعها ثم نظر اليها. في حنان وقال :

«هل سيكون والدك باستقبالك؟»

هزت رأسها وهي تطرف بعينيها قليلاً من شدة وهج الشمس :
«كلا. طلب من إحدى جاراته ان تستقبلني أرسلت صورتي في رسالتي الأخيرة وقال لي إنها ستتعرف علي أنا أشعر ببعض الدوار»
«سأنتظر حتى تأتي هذه الصديقة. لا أحد يعرف ماسيحدث»
«أنت طيب للغاية، لكني»

«لا يمكنني ان اتخلى عنك وانت في هذه الحال»

«أسفة ماذا قلت؟»

أعادها صوت جاكسون مرة أخرى الى الواقع.

«يبدو أن تلك السيدة القصيرة تلوح لك»

نظرت جين الى الحشد الصغير المتجمع خلف حاجز خشبي.
الجميع يلوحون بالناديل تنطلق منهم أصوات سعيدة صاخبة، رأت
أمرأة شقراء تلبس ثوباً بسيطاً مشجراً بالأزهار. كانت تمسك بصورة
فوتوغرافية، وعيناها تحدقان في جين وهي تبسم.
«أنت على حق. هذه المرأة جاءت لترافقني.»
لم يكن ما عاشته حليماً. أن أباه موجود هنا بالفعل، وقد أرسل في
طلبها.

قالت المرأة الشقراء ذات الاربعين عاماً :
«ياعزيزتي، عرفتك فوراً - أنا ميغان ديفيز جارة أبيك هل كانت
رحلتك جيدة؟»
«رائعة. شكراً لكنني متعبة قليلاً.»
وبعدما تعرف جاكسون الى المرأة قال :
«سعدت بلفانك يا ديفيز. كنت أود فقط التأكد من أن شخصاً ما
سيكون في لقاء جين.»
قالت جين ضاحكة :
«شكراً لك على رعايتك واهتمامك.»

وبعد مغادرتها أرض المطار حدث شيء غريب. أطلقت ميغان
نفير سيارتها ولوحت بيدها. استدارت جين وفي ظنها انها تلوح
لجاكسون لكنها كانت سيارة مرسيدس بيضاء انطلقت بجوارها.
وأثناء ذلك حيا السائق ميغان. لم يكن ذلك الشخص سوى الرجل
المشاغب الضخم.

«لم أعرف أنه عاد على الطائرة نفسها معك.»

استدارت ميغان في زهول في اتجاه جين. ورأت التعبير الذي
يعلو وجهها وقالت:

«ماذا هناك يا جين؟»

«لا شيء... سبق لنا وشاهدنا هذا الرجل في مطار جانف كان يتشاجر مع
بعض الموظفين.»

انطلقت ميغان ضاحكة :

«انه غافن غرانت المعروف في كل مكان. ماذا كان سبب الشجار؟»
«لا أعرف.»

ردت جين بهيؤ مدركة أنها تقف على أرض زلقة. فهذا الرجل، كما
يبدو صديق لميغان. لذا ينبغي ألا تحسن به.»

لكنها لم تستطع الكذب، وأفصحت قائلة :

«جاكسون يعتقد أنه كان يحاول منع امرأة صينية من ان تستقل
الطائرة. كانت تقف هناك ممسكة بحقيبة ضخمة من الكرتون، ثم
اقتادوها بعيداً وما عدنا رأيناها.»

«أنا واثقة، أن الحقيقة تختلف عن المظهر تماماً.»

«كيف حال أبي؟»

ادارت جين ان تغير مجرى الحديث

«ليس على مايرام يا جين. انه في شوق الى رؤيتك طوال الاسابيع
القليلة الماضية ومنذ أن قلت إنك قادمه كان كالطفل. اضطر ماك
أن يعطيه مهدناً غير مرة.»

«ماك؟»

«الدكتور دانكان ماكдона هو معروف لدى أبناء الجزيرة باسم ماك

أنه لم يفقد أبداً لهجته الاسكتلندية الواضحة وهو والدك صديقان قديمان.

«بماذا يشعر ابي؟»

«لأنعلم ماك طلب منه أن يذهب ليعرض نفسه على صديق له أخصائي في سيلان. لكنه رفض باصرار أرجو ان تحاولي اقناعه.»
«سأحاول بالطبع.»

ربتت ميفان على ذراعها.

«أنا سعيدة بمجيتك يا جين فانا في حاجة الى صديقة تخفف عني وطأة الرجال.»

«هل هذا أمر سيء؟»

«كلا، ولكن ليس في وسعك أن تتحدثي معهم بالطريقة نفسها. أتستطيعين ذلك؟ ابني كولين سيحاول على الأرجح أن يختطفك بعيداً، لكنني سأكون حازمة.»

«كولين ماعمرة؟»

كانت جين تتصوره غلاماً في سن المراهقة.

«٢٢ سنة. أنه يعمل لدى غافن.»

«أنا لا أعرف أي شيء عنك وعن عائلتك.»

«أنا أظن قريباً من أبيك. وعندما أقول جارته الملاصقة فهذا صحيح الى حد ما لكن منزلي يبعد عنه حوالي نصف ميل تقريباً. أنا أرملة منذ سبع سنوات وأعيش مع كولن. أما أبوك فيعيش وحيداً باستثناء إلين مديرة المنزل هي لطيفة للغاية ولكنها ميالة جداً الى السيطرة. ثم هناك غافن.»

«أتعنين ان غافن جار لأبي أيضاً؟»

«نعم يجب أن ترى منزله يا عزيزتي أنه خرافي. فهو في الواقع يملك الجزيرة ويفرض عليها قوانينه الخاصة كما ستكتشفين بنفسك.»
ضحكت ثم إستطردت:

«هناك ليوني سهايث وابنتها سارة لكن منزلها يبعد أميالاً عدة. ستلتقين بهما حتماً. احب ان اعرف رأيك فيهما. ان ليوني ترغب في أن ترى ابنتها زوجة لغافن. وهي قد ترى فيك المنافسة الخطيرة. ألم يقل لك أحد بعد كم أنت جميلة؟ لو كنت أملك عينيك المخضراوين لكنت في قمة السعادة.»

صمتت جين. أدركت فجأة أن ميفان كانت تتحدث في صدق. الحالة دوروثي غرست فيها وبصفة مستمرة أنها مجرد فتاة عادية، وتقبلت هي هذا الوضع. كان ذلك يجعل الحياة أسهل. والان بدأت تدرك أن آراء الحالة ليست دائماً في محلها.

وصلنا الى المنطقة المتحضرة. بدت لمحات خاطفة لبعض الفيلات من خلال أشجار النخيل الكثيفة. مبان منخفضة بيضاء ذات أبواب ملونة. وصاحت جين:

«أنها رائعة.»

«وصلنا الآن الى منزل غافن. انظري الى يسارك يا جين. هناك منزل عال ذو شيايبك خضراء وسطح من القرميد، تحيط به حديقة ملائى بالأشجار والازهار الياضعة المورقة من كل نوع ولون.»
«هل يسكن هنا؟»

«نعم، انه يقيم حفلات رائعة تظل حديث سارامنكا كلها.»

شعرت جين بما يشبه الجيشان بسبب حرارة الجو من جهة وبسبب ازدياد كرهها لغائن الذي يحظى، على ما يبدو، باحترام المرأة التي ترافقها.

وعقدت العزم على ألا تذهب الى اي من حفلاته اذا دعاها وهذا أمر مستبعد.

أدركت، وقد أسرع خفقات قلبها، أنها يقتربان من منزل أبيها. كيف سيكون شكل البيت من الواضح أن هناك ثراء أين هو مما قالته الحالة دورثي؟ قالت أنه على الأرجح يعيش في كوخ بناء من اعشاب الشاطئ، ياليتها كانت هنا الآن.

«أشكرك، لك يامغان حضورك للقياي».

ضحكت ميغان قائلة:

«يجب أن أعترف بأنني كنت متشوقة لاراك أمل أن اكون حاضره عندما تلتقيين ليون وسارة».

«أنا ارجو ذلك أيضاً ياعزيزتي».

«وصلنا».

إنعطفت السيارة الى طريق خاص واسع متعرج يشبه كثيراً الطريق المؤدي الى منزل غافين غرانت غير أن المسافة بين الطريق والقيلا. البيضاء التي ظهرت الآن كانت أقصر: شهقت جين في دهشة عندما شاهدت المنزل. كانت هناك شرفة طويلة فيها أعمدة بيضاء نحيله تدعم قرميد السقف. وكانت النوافذ ذات لون أخضر فاتح وقد فتحت على مصراعيها أمام أشعة الشمس. كل هذا محاط بمنظر الأزهار والورود ذات الرائحة الشذية وقد ترعرعت في انطلاق

حول الحشائش الخضراء:

قالت جين :

«لم اكن اتوقع ان يكون بيت ابي في مثل هذا الجمال».

«حسنا تعالي ياعزيزتي فأبوك ينتظرك».

كان هناك شيء غريب في الطريقة التي تحدثت بها ميغان لكن جين لم تكتشف السبب إلا بعد فترة. خرجت من السيارة وهي تشعر بالتعب. وسط حرارة شديدة مشبعة بالرطوبة.

قالت ميغان :

«ستعادي ذلك حاولي الاحتفاظ بطاقتك الى ما بعد الظهر وأؤكد لك أن الجو يصبح أبرد وألطف في المساء».

دخلنا الى هو رطب جدرانها بيضاء فيه سجاجيد رقيقة فوق أرضيته الخشبية اللامعة. كان هناك أيضاً العديد من اللوحات المعلقة فوق الجدران. وغيتار ينعكس خشبه الداكن الضخم مع لون الجدار الأبيض المبهر من خلفه فرحت جين برؤية الغيتار وكانت على وشك أن تتكلم عندما سمعت صوتاً يقول:

«ميغان ، هل أحضرت ابنتي معك؟».

جاء صوت ميغان بنغم شجي:

«نعم يا جون ، وستأتي فورا».

دخلنا غرفة جلوس قسيحة في مؤخرتها نوافذ واسعة تطل على مزيد من الحدائق تنحدر نحو غابة من النخيل ذى الورق اللامع المتعرج. تناثرت في الغرفة قطع من الأثاث الخيزراني البسيط التي أعطت انطباعاً بالاناقة وقد أمتلأت الجدران بمزيد من اللوحات. وسط كل هذا

كان الرجل هو الذي أستحوذ على انتباه جين وقد تلاشى كل ماعداه وهو ينهض من مقعده وذراعا ممدوتان.

«جين ، ابنتي»

كان صوته منفعلاً ، واتجهت نحوه كأنها في حلم. كان هذا هو الرجل الذي حلمت به ولم تتخيل أنها ستراه. كان أكبر سناً مما كانت تظن ذاكرتها، لكن جون ريتشي كان رجلاً وسيماً. وكان شعره الداكن الذي يتخلله لون رمادي باهت مشطاً الى الخلف كاشفاً عن جبين عريض. كانت عيناه تشبهان كثيراً عيني ابنته، جونتسين، ملينتين بالحزن.

«أبي ، أبي !»

«جين طففتي بعد كل تلك السنوات.»

تعلق كل منهما بالآخر في صمت ثم أبعدا في رفق:

«دعيني أناملك. أنا لا اصدق أنك انت ابنتي حقاً.»

«نعم أنا ابنتك. وعندى الكثير مما يجب ان تطلع عليه.»

«لا. ليس الآن قلت لي ما يكفي يا جين في رسائلك. لست في حاجة

الى أن تقولي لي شيئاً عن شخصية دورشي. أين ميغان؟»

«عادت ميغان وهي تبسم.»

«سمحت لي إلين أن أحضر لكها هذا بنفسى. ستحضر هي بعض

الكعك.»

استطردت ميغان وهم يتناولون القهوة:

«رأينا غافن في المطار لم أكن أعلم أنه سيكون على الطائرة نفسها

مع جين.»

رفع جون ريتشي حاجبيه في دهشة:

«ولا أنا أيضاً. غريب أنه لم يذكر ذلك عندما كان عندي أمس.»

نظرا الى جين متسائلاً:

«ما رأيك فيه؟»

وقبل أن ترد جين اندفعت ميغان ضاحكة:

«أخشى يا جون أن تكون جين قد أخذت انطباعاً سيئاً عنه. حدث

مشهد صاخب في مطار جافر ويبدو أنه كان هو المتسبب فيه.»

ابتسم جون ريتشي وقال:

«أه فهمت. يمكن أن يكون مخيفاً اذا كان في إحدى نوبات طبعه

المحادة. لا بأس غداً تعرفه تماماً عندما تتعرف اليه. أنا متأكد من ذلك.

والان أخبريني يا جين ما رأيك في سارامنتكا؟ أهي كما تصورتها.»

تنفست جين الصعداء وراحت تروي لابيها ملاحظاته.

دخلت إلين. وكانت امرأة ملونة ضخمة، وهي تحمل صحناً كبيراً

مليئاً بالكعك والشطائر قدمها جون ريتشي لجين وكان من الواضح

أنه يحمل لها الكثير من التقدير. وعندما غادرت الغرفة نظرت ميغان

الى ساعتها وقالت:

«يجب أن أذهب الآن الى اللقاء. سأمر غداً لأراكها.»

«أن ميغان صديقة طيبة، وكذلك ابنتها كولين ستكون هذه أجازة

طيبة لك وسأبذل كل ما في وسعى لاجعلها كذلك.»

«يكفي إنتي هنا لم التخيل لحظة ان ذلك سيتحقق.»

أمسك جون ريتشي بيدها وقال:

«لن نأسف على مافات. ان المستقبل هو كل مايجب أن نفكر فيه الآن»

أريدك أن تفكرى بجدية في البقاء معي، أن تجعلى من هذا المكان بيتاً لك كان لكلماته وقع غريب على جين.

«أنا - أنا»

«لا ليس الآن. أنا لا أريدك أن تقولي شيئاً الآن. أنا رجل ثري يا جين. لقد كنت محظوظاً وليس لي من أشاركة ذلك سواك. لكن القرار هو قرارك. وأنا لست مستعجلاً أشعر أنني صغرت عشر سنوات بعد أن رأيتك. إنك تشبهين أمك كثيراً».

«توقف برهة ثم استطرد:

«لدي الكثير لأقوله لك - ولكن ليس الآن. سأستدعي إلين لتريك غرفتك. استغرقت في إعدادها أياماً عدة».

ابتسمت جين وقد بدا عليها الالقاء، ثم تذكرت شيئاً فقالت: «رأيت آلة غيتار في البهو. أعترف على الغيتار؟»

لمعت عيناه قائلاً:

«كنت معتاداً على ذلك في الماضي. لا تقولي لي إنك تعزفين الغيتار أيضاً؟»

«نعم، تعلمت ذلك في المدرسة. كنت أود أن أحضر غيتاري معي لكنني لم أستطع نظراً للوزن المسموح به للأمتعة».

ضحك والدها وقال:

«هذا رائع! جين تلعب الغيتار، لا أصدق ذلك. أتدريين أنه كان أول آلة أتعلّم العزف عليها والآلة الوحيدة كذلك. عديني أن تسمعينني بعض الموسيقى غداً؟»

«أعذك بذلك».

إنحنت جين لتقبله في الوقت الذي دخلت إلين تطفطن بخفيها على أرضية الحجرة اليراققة وقالت لها:

«إنك في حاجة إلى أن تنامي قليلاً، وغرفتك معدة. تعالي معي».

عندما استيقظت جين كان الظلام مخياً وكانت الغرفة باردة. أحست بالجوع فجأة. قفزت من سريرها، لبست خفا من الفرو وتدفرت جيداً ثم ذهبت إلى الحمام.

رأت ضوءاً منبعثاً من الطابق الأسفل، وبعد تردد، نزلت في هدوء. كانت تأمل أن تجد شيئاً لتأكله. سارت عبر البهو حيث كان ضوءاً خافت يستطع على الغيتار وعلى اللوحات. توقفت جين أمام أحدها، وقد نسيت جوعها وهي تمحذ في الألوان الزاهية في لوحة صياد يقف في جوار زورقه. كانت لوحة بالألوان الزيتية بدت أكثر إثارة وغموضاً تحت الضوء الخافت. خيل إلى جين أنها شاهدت اللوحة من قبل. ولكن كيف يمكن أن يحدث ذلك؟

أحست بالحيرة، واستأنفت في هدوء يشدها ذلك الوهج الدائم المنبعث من مصباح في غرفة تقع في نهاية الممر، دفعت الباب لتجد نفسها في المطبخ.

أنت إلين بحركة خفيفة في مقعدها الهزاز ثم فتحت عينيها وابتسمت لجين قائلة:

«أنت جائعة أليس كذلك؟»

«نعم. أنا أسفة يا إلين إذا كنت أزعجتك».

«لا باطلني. لقد كنت أربح عيني فقط كنت أعلم أنك ستستيقظين في هذا الوقت. الجميع يفعلون ذلك بعد رحلة طويلة. اجلسي. هناك

بعض الدجاج ساحضه لك.

«شكراً يا إيلين. رأيت منذ قليل لوحة زيتية في البهو. هل احضر أبي

معه العديد من الرسوم عندما جاء الى هنا؟»

«ماذا؟ أنها ملكه. أعني انه هو الذي رسمها. ألم تعرفي ذلك؟»

كانت ذهنتها تعادل دهشة جين نفسها.

«أتعنين أن أبي رسام؟ هذا غير معقول.»

«نعم انه كذلك. بل انه اهم رسام. هو يبيع لوحاته في مختلف أنحاء

العالم. أحياناً لا تعرفين؟»

هزت جين رأسها وهي مذهولة. أن هناك الكثير لاتعرفه. بل

لا يمكن لها أن تتخيله وقد بدأت الأشياء الآن تنتظم في شكل محدد:

«لم أعلم شيئاً عن أبي، لم أعلم شيئاً على الاطلاق يا إيلين، الى أن

اكتشفت رسائله ورددت عليها.»

«أصدقك يا طفلي، لاتضطربي هكذا. أنني فخورة بأنني أعمل لدى

والدك. لقد حضر خبراء من شتى أنحاء العالم الى هنا ليروا اللوحات

ويبتاعوها. ألم تشاهدي أياً منها من قبل؟»

هزت جين رأسها في ذهول:

«لأعلم لكن اللوحة التي في البهو، لوحة الصياد والزورق، تبدو

مألوفة لدى.»

«قد تكونين شاهدتها في الصحف. فقد جاء الى هنا في العام الماضي

مراسلو عدد من المجلات والنقطة صوراً لأعمال أبيك. إن اسم

أوغستاس ريتشي معروف في العالم كله.»

همست جين قائلة:

«أوغستاس أوغستاس بالطبع كم كنت حقاً.»

لقد رأت طبعات لرسومه الحية لبعض الجزر. مناظر طبيعية زاهية

الألوان ذات أسلوب مميز ألحق عليه الخبراء صفة البدائية. وإستوقف

نظرها إسم ريتشي أيضاً. لكن هذا هو كل ما حدث. لم تكن

لتتخيل أن أباه هو الذي رسمها.

«بالطبع، إسمه جون لكن اسمه الآخر أوغستاس وهو يعني

الشخص ذا المكانة الرفيعة.»

تنهدت إيلين، كان وجهها ترسم عليه الطيبة وهي تطلق فوق

أرضية المطبخ لتضع الطبق أمام جين.

«لديك الكثير لتعرفيه عن أبيك، أليس كذلك؟ إنه سعيد بمجيشك،

يمكنني أن أرى ذلك وقد سررت لذلك أنا أيضاً.»

«أشكرك يا إيلين.»

إبتسمت جين قائلة، وهي تحس بعاطفة مفاجئة نحو هذه المرأة:

«أنا لا أشعر بالنعاس. هل أستطيع ان أخرج لأتمشى في الحديقة؟»

«بالطبع. يا حلوتي، لا لصوص هنا في سارامسكا. ولكن هل أنت

متأكدة من انك ستخرجين في هذا الوقت المتأخر.»

«متأكدة طبعاً. وإلا فلن أستطيع النوم.»

«سأحضر لك مشعلاً، فوالدك لن يسأحنني اذا تعثرت وأصبحت عديني

ألا تبتعدي كثيراً عن المنزل؟»

«أعذك يا إيلين. أريد فقط بعض الهواء النقي.»

«أذن أصعدي حالا وارتي معطفاً فوق قميص النوم. فالجو بارد في

الخارج سأحضر لك المشعل.»

ركضت جين سعيدة الى الطابق الاعلى. فكرت أن تسير عبر ذلك
الممر لتصل الى الطريق ثم تعود. ان ذلك سيساعدها في تخفيف وقع
الأنباء المتراكمة عليها.

إنبعث صوت الحصى المطحون تحت قدميها ولفتها رائحة أزهار
خفيفة. كان الجو بارداً، وشعرت بالسعادة لأنها تدثرت بالمعطف. أمسكه
بالمشعل. وقفت قليلاً في الظلال السوداء بعيداً عن المنزل حتى تعناد
عينها على الظلام.

كان الليل هادئاً والسماء مرصعة بالنجوم تتلألأ على مدى أبعاد
لانهاية. كان الاشعاع الخافت المنبعث من القمر يعطيها ضوءاً كافياً
لترى طريقها.

تنفست جين في عمق وأحست بسعادة مطلقة تجتاحها. لم يكن
هناك خطأ في تصرفها. قطعت آلاف الاميال لتصل الى هنا واختفت
تماماً كل المخاوف والآلام. إن والدها يريد لها، وهذا هو كل ما يهم.
سارت ببطء وحرص، وكأنها تخشى أن تخذش السكينة المسيطرة، ثم
مالبت أن سمعت نباحاً رهيباً وصوتاً يصرخ:

«كارلو، قف مكانك.»

غمد الكلب وهو يئن أنيناً خافتاً ورقد تحت قدمي جين. أخذت
تبحث عن زر المشعل ثم أضاءته لتجد غلاف غرائت يتقدم نحوها
في خطى واسعة.

٢ - اللقاء

هل أزعبك الكلب؟ لا تخافي فهو لن يؤذيك
كان قلب جين يخفق بسرعة وهي تواجه الرجل الضخم الذي
كرهته من النظرة الاولى:

«هل يقفز هكذا دائماً في وجه الناس؟»
«لا، انه لا يفعل ذلك. لكنه أيضاً لا يرى عادة أي شخص في هذه
الساعة المتأخرة من الليل.»

كان صوته هادئاً، وكان يمكن أن تجده جذاباً ولكن بسبب ما حدث،
أحسنت جين بكيانها كله ينفر من الرجل.
قالت وقد استدارت عائدة الى منزل أبيها.

«على أن استأذنتك قبل أن أتمشى في الليل ثانية.»

«أنقطين هنا؟»

«نعم، طابت ليلتك.»

«إذاً، أنت ابنة جون؟»

استدارت نحوه. وقالت:

«نعم أنا إبنته»

كانت جين ترتجف لكنها كانت واثقة أنها إذا استمرت تتحدث الى الرجل فانها ستقول شيئاً تأسف عليه. لم تكن تفهم سبب التأثير الغريب لذلك الرجل عليها ولكنها كانت تعرف تماماً أنها لم تلتق من قبل شخصاً آخر يستطيع أن يثير فيها مشاعر الغضب مثل هذا. راعها بل أفزعها أن تكتشف أنها وهي الهادئة المتسامحة، قادرة على الاحساس بمثل تلك الكراهية.

«أنا غافن غرانت، جار أبيك يا آنسة رينشي. أمل أن تلتقي ثانية في مناسبات أفضل من هذه. هل أصبحك الى المنزل؟ لا شكراً، يمكنني أن أتدبر الامر ما دمت قد ابعدت كليلك.»

استدارت جين وسارت في اتجاه باب المنزل، وخيل اليها أنها سمعت صدى هائلاً لكلماته. لقد كان هناك شيء آخر في صوته غير ذلك الاحساس بالدهشة. كان هناك خيط دقيق من الاحتقار وأحسّت جين وكأن وجهها يشتعل وسط الظلمة الباردة كيف يجبرو أن يتحدث اليها هكذا؟

استغرقت جين في النوم حتى ساعة متأخرة من النهار. نهضت ونزلت مسرعة الى الطابق الاسفل يخامرها شعور بالذنب لتأخرها مثلهفة في الوقت نفسه الى لقاء أبيها. وعندما إقتربت من غرفة الجلوس القسيحة توقفت عند سماع أصوات في الداخل. ان لديه زواراً. أصلحت جين من شعرها. كانت ترتدي ثوباً بسيطاً حاكته بنفسها من القطن الأزرق بلا أكمام. وقفت جين أمام الباب في توتر ثم طرقته ودلفت الى الداخل.

استقبلها أبوها بذراعين ممدودتين قائلاً:

«جين يا عزيزتي، اطلعت على تفاصيل مغامرتك.»

أيقنت جين دون أن تلتفت أن الرجل الواقف أمام المقعد المواجه لأبيها لم يكن سوى غافن غرانت.
«طاب صباحك يا آنسة.»

التفت جين تجاهه وظلت ممسكة بيدي والدها.

«طاب صباحك يا سيد غرانت.»

كانت تلك هي المرة الأولى التي تراه فيها بوضوح. رأت عينيه رماديتين تتفحصانها بهدوء. كان وجهه صارماً وذقنه مربعة متجهة بعمق الى الأسفل. شعره الداكن الأملس الذي كان يعلو جبهته بتنسيق جيد كان أطول قليلاً من المعتاد. أما فمه كان واسعاً فيه لمسة قسوة. مدّ لها يده محبباً فأمسكت جين بها على مضض وأحسّت بقبضته القوية. حدثتها غريزتها بأنه رجل قوي خطير وأن هناك كراهية مقنعة من جانبه تجاهها تثير قلقها وحيرتها في آن.

قال أبوها وهو يضغط على يدها:

«لندع الرسميات جانباً. أليست جميلة يا غافن؟»

أخنى غافن غرانت رأسه قليلاً بقدر من الافتعال:

«بالطبع جنت لأعذر عما حدث بالأمس، يا جين.»

«ليس هناك داع للاعتذار. فكل شيء على ما يرام.»

جلست جين تستمع الى حديث الرجلين وهي تشعر بأنها تريد مغادرة المكان لقد سيطر غافن على الجو كانت تشعر بعينيه مشبتين عليها حتى من دون أن تنظر اليه. وأحسّت بقصة. كان في الثلاثينات

من عمره، ذا مظهر قوي يوحى بأن لديه القوة الكافية لسحقها إذا أراد ذلك. وبعد جهد تمكنت جين من أن تقول، منتهزة فرصة من الصمت:

«سأذهب لأتناول فطورى يا أبى فانا لا أحب أن أدع إلين تنتظر فاسمحي لي.»

وقفت واتجهت صوب الباب، فتحرك غافن ليفتح لها الباب. «شكراً.»

تبادلا النظرات. كان هناك ذلك الاحساس العدائى، وبرغم أنه كان مقنعاً بصورة بارعة، إلا أنه كان واضحاً تماماً لجين. وتضايقت. لماذا يكرهها؟ ليس لديه أي مبرر لذلك. اتجهت جين ناحية المطبخ وهي تشعر بالقلق لتطور الأحداث.

يبدو أنها نسيت كل شيء الآن وهي تسير ببطء مع أبيها في الحدائق الشاسعة المحيطة بالفيلا وسمعت هدير البحر، فاستدارت نحو أبيها وقالت:

«لم أعلم أننا قريبون من البحر الى هذا الحد.»

«للأسف أننا لا نراه من المنزل. ولكن ليس في وسع المرء أن يمتلك كل شيء. ان غافن يقيم أحياناً حفلات على شاطئ البحر. أريد أن ادلي بعض الملاحظات في هذا الصدد.»

«لا توجهيها الى أرجوك، فليس لي شأن في هذه الأمور.»

«هل انهم من ذلك ان هناك بعض الفتور بينكما.»

«أنا أسفة يا أبى. لم أقصد ذلك.»

«لا تكوني عصبية الى هذا الحد. فقد كنت أهزل معك فقط أنا أعرف

تماماً أنه مستبد الى حد ما. لكنك ستجديته شخصاً رائعاً عندما تزداد معرفتك به.»

كان واضحاً أن والدها معجب بغافن غرانت فهو جاره وصديقه أيضاً. أما هي التي وصلت بالأمس فهي مجرد دخيلة. كيف يمكنها أن تتجراً وتقول انها تجد متعجرفاً للغاية وانها لن تنسى أبداً تصرفه في المطار

ابتسمت وقالت :

«أنا واثقة من أنه لطيف للغاية. كنت بلهاء. أرجوك دعنا ننسى ذلك. أريد أن أعرف الكثير عنك. لماذا لم تشر الى لوحاتك في رسائلك الي؟» تنهد جون وقال:

«هروت لي إلين ما دار من حديث بينكما أمس. أنا لم أشر الى ذلك لأنني أردت أن تحضري لرؤية والدك. وليس لرؤية رسام سخيف.» «كنت سأحضر في كل الاحوال.»

جلس جون و جين في أريكة تحت ظل نخلة طويلة. صدر حقيقاً كان الهواء مثقلاً برائحة نبات الياسمين البري. كل شيء فيه لمسة جمال زاهية فأحست جين بالراحة وقالت:

«ما تخيلت أن يكون كل شيء رائعاً هنا...»

وفجأة غيَّرت مجرى الحديث وقالت:

«لم أكتشف انك كنت تراسلني إلا منذ شهر فقط.»

«كنت أعرف أن دورثي تكرهني لكني لم أكن اتصور أبداً أنها

ستنحط الى هذا الحد. وعندما كتبت الي.»

«هل كتبت اليك؟»

«نعم! لا تقول لي أن ذلك كان دون علمك.»

«متى كان ذلك فانا لا أعلم شيئاً؟»

«منذ حوالي عامين عندما استقر بي المقام هنا. كتبت لتطالبي بأن أكف عن ازعاجك وانك لا تريدن سماع أي شيء يتعلق بي وانني اضيع وقتي هباء في الكتابة اليك.»

ارتعشت شفتا جين وهي تقول:

«لا - لا لكنك واصلت الكتابة بعد ذلك؟»

«لم يكن أمامي حل آخر. فكرت أنك في يوم ما ستصفحني عن انسان عجوز.»

قالت والدموع في عينيها:

«لا تقل ذلك أرجوك. أنا لا أفهم يا أبي لماذا كانت تفعل ذلك. وربما لن أفهم أبداً. ولكنني أقسم أنني كنت سأكتب ولو وصلتني رسالة واحدة منك.»

«أعلم ذلك الآن يا طفلي. دعيني أقول لك شيئاً آخر قبل أن تنهي هذا الموضوع. عندما تركت أمك، كان ذلك لأنها طلبت مني أن أرحل. لقد أحببتها لكنني أدرك الآن بعد ما فكرت في الأمر طوال تلك السنوات أن دورتي هي التي أثارتها ضدي. انها بشكل ما المتسببة في انفصالنا وأنا أعلم الآن لماذا فعلت ذلك؟»

تساءلت جين ببطء:

«هل كانت تحبك؟»

«نعم. أتصور ذلك. التقينا منذ عشرين سنة في سانت ايف. أثناء العطلة الصيفية. كنت في الخامسة والثلاثين من عمري وكنت فقيراً

أحاول أن أمارس هواية الرسم لكنني لم أكن قد حققت شيئاً بعد. ثم التقيت دورتي وشقيقتها. كانت دورتي في الثلاثين من عمرها وكانت والدتك تصغرها بخمس سنوات. تعارفنا وأخذنا نتبادل أطراف الحديث كما يفعل الناس عادة في عطلاتهم. كانت دورتي هي الأخت المسيطرة. أما لوسي والدتك فقط شدتني كثيراً. خرجنا معاً عدة مرات، أحياناً مع دورتي، وأحياناً أخرى بدونها إذا تمكنا من ذلك. أعتقد أنها ظنت أنه من الطبيعي أن أرغب فيها ما دامت هي الأقرب لي سناً. وعندما طلبت من والدتك أن تتزوجني كنت صريحاً معها. قلت لها اني سأبحث عن عمل لكن الرسم هو طموحي الكبير وتفهمت أمك ذلك بعكس دورتي.»

استطرد مبدحاً أمامه في لا شيء وكأنه يعيش الماضي من جديد: «كان منزل الأسرة كبيراً يكفي لعدة أسر. والأختان كانتا تقطنان فيه وحدهما منذ وفاة جدك. فكان من الطبيعي أن نعيش أنا و لوسي في المنزل نفسه بعد زواجنا. قسمنا المنزل في الواقع الى قسمين. في بادئ الأمر عشت في سعادة مع لوسي.»

توقف عن الكلام وقد شاعت في عينيه نظرة ألم. ثم قال: «بدأت دورتي في إثارة المتاعب. كانت لوسي تنتظر مولودها الأول - وربما أثار هذا غيرة دورتي لأنها أدركت أن فرص زواجها تختف مع مرور السنين. بعد مولدك تحسن الوضع قليلاً، فقد شغلت لوسي بك. وعندما كبرت وقعت أمك أكثر فأكثر تحت تأثير دورتي. فقد كنت خارج المنزل معظم الوقت حيث كنت أعمل كرسام في إحدى شركات الاعلان. ولم يكن أمامي الا أن أمارس هواية الرسم أثناء

عطيتي الاسبوعية. وهكذا كان لدى دورتي كل الوقت لتؤثر على والدتك. نجحت في ذلك. في بادئ الأمر كانت تستشيرها بتوافه الأمور: انه يقول انه يعمل حتى وقت متأخر في المكتب، لكن جميعهم يقولون هذا، أليس كذلك؟ ثم بدأت تقول لها انه يفكر في عمله أكثر مما يفكر فيك - وهكذا باتت لوسي تشكك في تصرفاتي. وعندما كنت في السادسة من عمرك، دب شجار بيتنا في أحد الأيام ووصل الى سمعك. ووجدتني محطماً وأنا أرى وجهك لأنني كنت أعرف تماماً تأثير ما يحدث. طلبت من لوسي أن نرحل لنعيش ثلاثتنا في منزل مستقل لكنها طلبت مني أن أرحل بمفردي. ثم اتكأ برأسه على يديه في تأثير عميق، واستطرد بصوت هادي: «وهكذا رحلت».

طوقته جين بذراعيها قائلة :

«كفى يا أبي».

سارا في بطن عاتدين الى المنزل. كانت جين تعرف أن الإفصاح عن الحقيقة نفعه وأكسبه راحة البال.

في أمسية ذلك اليوم أطلعها جون على سيارته التي ظلت دون استخدام طوال ستة أشهر. كانت من طراز فورد تاونس لونها أزرق فضي. وبأدائها متسائلاً :

«هل تعرفين قيادة السيارة يا جين؟»

هزت رأسها نقياً.

«أتحبين أن تتعلمي؟»

«لا أدري، أعتقد ذلك، لكنني لم أحاول».

«سأطلب من غافن أن يعلمك».

وعندما لاحظت ردة فعلها قال :

«آه لا ! آسف هناك ميفان أو اينها كولن أنا واثق أنه سيسعد بذلك».

في تلك الأمسية، وبعد أن تناولوا العشاء، جلست جين مع والدها يتجاذبان أطراف الحديث. يادها جون :

«اذهبي واحضري الغيتار وعدتني بأن تعزفي لي».

أحضرت الغيتار وجلست القرفصاء على أرض الحجر الخشبي اللامع. دأبت أوتار الغيتار بطريقة مرتجلة لعدة دقائق ثم بدأت إحدى أغانيها المفضلة. بدأت تغني دون خجل بعد أن التفتت نغمات ذلك اللحن الحزين.

لم تكن تدرك كم كان منظرها فائناً وهي تجلس على أرض الحجر وقد استرسل شعرها الأسود الداكن في تحرر - وانكب وجهها على الآلة الموسيقية، تحتضنها بلطف. نسيت نفسها في عالم تحبه، عالم الألحان. أخذ والدها يرقبها مأخوذاً وهو يستمع الى صوتها الخلو الواضح النقي والى النغمات التي تتناثر في جنح الليل.

وفجأة جاء صوت من ناحية النافذة ودخل غافن غرائت الغرفة وقد ثبت عينيه على جين وقال بصوت هادي:

«كان هذا رائعاً».

جذبت نفسها بشقة، وقفزت وقد استعادت وعيها فجأة. استدار

جون قائلاً:

«آره غافن منذ متى وأنت هنا؟»

«كنت على وشك أن أطرق الباب حين سمعت الغيتار تصوت أنك أنت يا جون الذي تعزف، ولذا فقد التفت إلى الواجهة الخلفية لأستمع في صمت»

واستدار نحو جين قائلاً:

«أهنتك فأنت تعزفين جيداً»

«شكراً»

ونظرت إليه لتحاول إيجاد أي أثر للسخرية في نبراته ولكنه بدا صادقاً.

«اني أحمل دعوة يا جون من سارة ووالدتها»

رفع جون حاجبيه في دهشة فضحك غافن وقال:

«ستقيان حفلة يوم السبت وتشميان لو أنك تحضر مع جين»

نظر جون إلى ابنته متسائلاً:

«ما رأيك يا جين؟»

تذكرت جين فجأة كلمات ميغان أمس عن حرص ليوني و سارة على رؤيتها خاصة وأن سارة التي تسعى وراء غافن لا ترغب في أية منافسة. كبحت جين ابتسامتها وهي تقول لنفسها إن هذا الأمر مسل. ليتنها تعلمان أنها لا تشكل عليها أي خطر. فالكراهية متبادلة برغم أنه بدا ظريفاً عندما امتدح عزفها على الغيتار.

رفعت جين رأسها عن الغيتار قائلة:

«إن هذا يبدو ظريفاً للغاية»

التفت غافن إليها. ترى هل استطاع أن يقرأ أفكارها؟ إن لديه نظرة رمادية ذكية ثابتة. وأدركت جين فجأة أن عينيه جذابتان

للغاية. قال:

«سأبلغها بموافقتكما على الذهاب وستذهبان في سيارتي. والآن وقد

اتفقنا، اسعيا لي بالذهاب»

«يجب أن تشرب شيئاً»

أحضرت جين المربطات ثم جلست. رفع غافن حاجبه متسائلاً:

«ألا تشربين معنا؟»

«لا شكراً»

رفع غافن كأسه قائلاً:

«في صحتكما»

في تلك اللحظة دخلت إلين الحجرة قائلة:

«جاءت السيدة ديفز يا سيد ريتشي»

دخلت ميغان، ومعها شاب طويل وسيم أشقر لا يمكن أن يكون إلا ابنتها نظراً للنشابه الكبير بينهما.

قامت ميغان بمهمة التعارف بينهما، احتفظ كولن بيد جين لفترة أطول من اللازم ثم ابتسم قائلاً:

«مرحباً يا جين»

«أهلاً بك يا كولن»

أحست بتورده وجشيتها خجلاً. ترك كولن يدها على مبيض واستدار نحو غافن الذي أحست جين أنه كان يرقبها وقد علت

شفتيه بسمة ساخرة»

«مساء الخير يا غافن، لم أرك من قبل»

«لاحظت ذلك.»

كانت نيرة غافن جافة أحست بالدماء تصعد الى وجهها. كيف
يجرؤ على مراقبتها. حدثت جين نفسها بذلك مضيغة نقطة جديدة
الى أخطاء ذلك الرجل. استطرد غافن:

«وفرنا عليّ جهداً. فقد طلبت ليوني مني أن أدعوكما الى حفلتها يوم
السبت.»

نظر كولن الى جين متسائلاً:

«هل ستذهبن؟»

«نعم سأذهب.»

«أوافقك هذا يا أمي؟»

ابتسمت ميغان للجميع قائلة:

«بالطبع. ستكون مناسبة شيقة للغاية.»

جلس الرجال الثلاثة معاً وجلست ميغان و جين في مقعدين
متلاصقين وبذلك تمكنتا من تبادل أطراف الحديث دون أن يسمعها
أحد. قالت ميغان بصوت منخفض:

«أتذكرين يا جين ما قلته لك؟»

«نعم أذكر.»

«هل لي أن أعطيك نصيحة؟»

«بكل تأكيد أرجوك.»

«إستمعي جيداً. الذين سيحضرون الحفلة سيكونون غاية في الفتنة
والاناقة. وأنا واثقة من أنك ستستمتعين بتلك الأمسية ولكنها لن
تكون مجرد حفلة... انها ستكون جلسة تقييم. أنا أسفة أن أقول ذلك

بطريقة فجأة ولكن دعينا تصعد الى حجرتك لانتقاء ما يمكن أن ترتديه
في تلك الحفلة.»

قالت الجملة الأخيرة بصوت مرتفع كبيرر لانفرادهما. وفي غرفة
جين في الطابق الأعلى خلعت ميغان حذاءها وجلست على حافة
السريّر قائلة:

«آه هكذا أفضل.»

بدأت تضحك بصوت جذاب ثم نظرت الى جين وهي مستغرقة
في التفكير ثم قالت:

«أعتقد أننا سننجم معاً.»

«تتحدثين بشكل يوحي بأنك ما كنت تتوقعين ذلك.»

عكست نيرة جين حيرتها. فهناك شيء لم تفهمه في قول ميغان.
هزت ميغان رأسها وقد شعرت بالضيق:

«أنا أسفة، لقد أوقفتني عند حذّي.»

استطردت جين بلهفة:

«لا تعتذري، فانت على حق. سأقول لك شيئاً الآن.»

«أنا دائماً أعترف بخطأي وقد ارتكبت خطأ في حقك دون قصد؟»

انتظرت جين في صمت. فقد أدركت أن كلماتها غير المتعمدة

فجرت شيئاً سيفسر لها ما كان يحيرها إزاء عدة أشياء.

أغلقت ميغان عينيها ثم استطردت:

«عندما أبلغنا أبوك أنك ستأتين بعد كل تلك السنوات اعتقدنا كلنا

انك جئت من أجل ان...»

ترددت قليلاً فاستحثتها جين:

«استمري أرجوك»

«فلنأنا أنك جئت فقط بعد أن عرفت أن أباك رجل ثري ولذلك فقد أتيت لتأخذي كل ما يمكن أن تحصل عليه. اعتقدنا بأنك تجاهلت أباك كل هذه المدة. والآن بعد أن مرض وتوقف عن الرسم الأمر الذي زاد بصورة تلقائية من قيمة لوحاته، قررت الحضور. ولذلك استغربت كثيراً عندما تملكك الدهشة لدى رؤيتك منزل أبيك. عرفت من وجهك أنك كنت صادقة وحين ذاك بدأت أفكر في أننا كنا على خطأ»

جلست جين في صمت. كان هناك شيء آخر يجب أن تعرفه فأردفت:

«ميغان لقد استخدمت عبارة كنا فمن انتم؟»

«كلنا يعني أنا وغافن»

«أذن هذا هو السبب»

«السبب في ماذا؟»

استدارت جين وقالت:

«عندما التقيت غافن، بدا وكأنه يكرهني. لم أعرف لماذا يحمل لي هذا الشعور وتصورت أنه كذلك مع الجميع ولكني الآن فهمت. يظنني أسعى وراء المال وكل ما أستطيع أن أحصل عليه. سأخبرك كل شيء»

وبدأت جين تروي القصة كلها وكيف اكتشفت وجود أبيها مصادفة وقول خالتها دورثي إن أباها يسكن في كوخ على الشاطئ»

عندما أنهت جين قصتها ساد صمت مطبق، وأخيراً قالت

الوجه الآخر للشباب

٤٠

ميغان:

«يا طفلي الصغيرة المسكينة، ماذا استطيع أن أقول؟»

«لا تقولي شيئاً، أردت أن تعرفي كل شيء كي لا تخطئي في حكمك علي»

«أوه يا عزيزتي، عندما أخبر غافن بالحقيقة فانه...»

قاطعتها جين:

«لا، لا أريدك أن تخبريه»

«لكن لماذا؟»

«لأنني أحتقره. أنه يتصور أنني أسعى وراء المال أذن دعيه يستمر في هذا التصور. أنا لا أهتم برأيه. فهو متعجرف مستبد. وأنا لا أظن أنني كرهت شخصاً قدر كرهني له في حياتي. أنا أعرف أنه صديق أبي ولهذا السبب فقط سأحاول أن أكون مهذبة معه، عشت ست سنوات مع خالة تشبهه إلى حد كبير وتحملتها طوال ست سنوات وفي وسعي أن أتحمّل ذلك الرجل غافن غرائث إلى حين. فإذا لم يتعلم كيف يحكم على الناس بما يتفق مع حقيقتهم وليس كما يراهم هو، فإنه بالنسبة إلى شخص لا يستحق المعرفة»

تبادلت المراتبان النظرات. كان في عيني جين تحدّ شجاع لم يكن في مقدور ميغان إلا أن تعجب به. ابتسمت ببطء قائلة وهي تلتفت في أرجاء الغرفة:

«جئنا أصلاً لتتحدث عن الحفلة»

ضحكت جين قائلة:

«إن هذا سيبدو الآن مصطنعاً، ألم تكوني تنوين تحذيري من أن

سارة تعتبرني منافسة لها. ان هذا لا يمكن أن ينطبق علي بعد كل ما قلناه.»

«ليس هذا هو كل ما أود أن أقوله. ان سارة برغم سحرها وجمالها ستحاول ببراءة أن تجعلك تبدين كالبلهاء. وهي ستستخدم لذلك اسلوبين: إما أنها ستتصل بك تليفونياً قبل يوم السبت وتطلب منك ألا ترتدي أي شيء نفيس مؤكدة أن أي ثوب بسيط يكفي، أو أنها لن تحذرك على الإطلاق وفي تلك الحالة ستذهبن وقد ارتديت أفضل ما عندك في حين أن باقي المدعوات ترتدين ثياباً صباحية بسيطة فتجدين نفسك في زى شاذ.»

«يا للعجب، كم هم أناس ظرفاء...»

ابتسمت ميفان قائلة:

«فعلت ذلك من قبل، ولكن في هذه المرة لن تكوني وحدك، سأقف الى جانبك. الديك ثوب ظريف لترتيديه!»

«ليس تماماً، فخالتي دورتي لم يكن بوسعها أن توفر لي شيئاً ممتازاً، ومن جانبي فقد أنهيت منذ قليل دراستي المتوسطة.»

«أعتقد أننا يجب أن نبحث الأمر مع والدك. فهناك محل تجاري كبير في هورت باتريك هو ملك لغافن بالطبع ويمكننا أن نجد فيه الكثير ان غافن يملك المحل التجاري الكبير والوحيد في سارامنكا وبالنسبة هو يملك أيضاً الفندقين الوحيدين فيها. انها يقدران بثروة. فوالده هو في الواقع الذي وضع سارامنكا على خريطة العالم. وهذا هو السبب الذي يجعل سارة تبذل كل هذا الجهد من أجله. دعيني أسألك هل ستحاولين تلقين غافن درساً؟»

«لا، بحق السماء.»

«حسناً. فانا كنت سأحذرك من ذلك. فهو صلب للغاية وفي وسعه أن يكون قاسياً وأي شخص دخل معه في صراع يمكنه أن يقول لك ذلك.»

ولكن هل ان ما قالته لميفان صحيح؟ لم تكن جين تعرف بالضبط كيف ستتصرف ازاء غافن وشعرت بما يشبه الدوار وهي متجهة الى غرفتها تزدحم في رأسها آلاف الأفكار.

٣ - الدعوة

كان اليوم التالي يوم جمعة. ابلغت إلن جين ان هناك من يريد لها على التليفون ولما التقطت الساعة سمعت سارة تقول: «أهلاً بك يا جين ، أنا وأمي نشكرك لقبولك دعوتنا ونشوق الى رؤيتك، فالحياة هنا يشوبها بعض الملل لذا فمن المتع أن نرى وجهاً جديداً. اتصلت بك في الواقع لأبلغك ألا تشغلي نفسك بما سترتدينه غداً. فالحفلة غير رسمية. ألا تظنين أن هذا سيكون أفضل؟» وفكرت جين بتحذير ميغان . لم تصدق أن الخداع يصل بالبشر الى هذا الحد. ربما تكون سارة، تلك المخلوقة العذبة الصوت غير التليفون، مناسبة جداً لغافن . فهما من نوع واحد. أنهت جين المكالمة وهي شاردة الذهن ثم بادرت بالاتصال بميغان واطلعتها على اتصال سارة . تذكرت جين شيئاً وهي تنتظر وصول ميغان . لقد قام غافن بإبلاغ تلك الدعوة مساء أمس، فهل اتصل تليفونياً بسارة لإبلاغها أم أنه ذهب بنفسه لرؤية سارة . لم يكن الأمر مهماً.

وبرغم ذلك وجدت جين نفسها تفكر فيه.

بعد نصف ساعة فقط كانت جين وميغان تعبران طريق فسيح يؤدي الى الطرف الآخر من الجزيرة. كانت ميغان تبدو نظيرة جذابة وهي ترتدي سترة بيضاء بلا أكمام فوق ينظلون أزرق بينما شدت شعرها الى الخلف بوشاح من القماش الخفيف أما جين فقد ارتدت ثوباً تقليدياً من الترلين الأزرق الذي كان خفيفاً بالنسبة لجو انكلترا، أما هنا فهو يشيع فيها الدفء بدرجة غير مريحة تحت حرارة شمس الصباح. لاحظت ميغان ذلك فقالت: «الأقمشة الصناعية لا تلائم جو سارامانكا، القطن أفضل. وقد أعطانا والدك حرية التصرف ولذا سنشتري ما يناسبك في هذا الجو الحار».

«أنا أشعر بالذنب لأنني أنفق من حسابي الخاص. سأحرص على ألا أنفق كثيراً».

«قال لي أن تشتري كل ما تظنين. إنه سعيد بهذه الفرصة، صدقيه يا جين».

وأحست جين بدفقة من السعادة لم يكن حتى التفكير في غافن قادراً على افسادها. أنها ذاهبتان الى المحل الذي يملكه، لكن ميغان أكدت أنه لا يوجد احتمال في لقائه. أضافت ميغان وكأنها تذكرت شيئاً:

«كولن قال لي انه سيحاول ان يلتقانا في المطعم الملحق بالمحل لتناول القهوة. إنه مأخوذ بك الم تلاحظي ذلك؟»

«بماذا أجيب من غير أن أبدو مغرورة؟»

«لا تقولي شيئاً، ولكن علي أن أحذرك أن كولن يجب مغالبة
الفتيات وقد يفيد أنه يلتقي فتاة مثلك.»
«سأحاول أن أتذكر ذلك.»

وتساءلت جين: كيف سيكون موقف ميغان إن هي عرفت أن
جين لم تصادق أي فتى حتى الآن. لقد أدت الحالة دورتي
دورها جيداً وتمكنت من أن تغرس في جين شكوكاً جعلتها غير
واثقة من نفسها. وهي الآن تشعر باحساس جديد بعدما عرفت أنها
قادرة على أن تثير انتباه الرجال.

كان لون السماء يقترب من البياض والضوء يراقاً، وعلى جانبي
الطريق أشجار التخيل التي قد لا يخلو مكان منها في الجزيرة. ومن
على بعد ترتفع الجبال بانسياب، زرقاء باهتة. أخذت جين نفساً
عميقاً وهي تهمس:
«هذا المكان رائع.»

«ولذلك فهو مكتظ بالسياح خاصة في بورت باتريك. فكل
أسبوعين ترسو سفينة في الميناء وينزل ركابها إلى الشاطئ. وهم يتفقدون
أموالاً كثيرة في شراء القطع المفروزة والأعمال الخشبية المحفورة. ولكن
بصفة عامة يسود الهدوء الجزيرة، وأنا أحبها هكذا كما أن غافن
ينوي الحفاظ على هذا الطابع.»

حدثت جين نفسها قائلة: «أوه هذا الرجل ثانية! أليس هناك مقر
من ترديد آرائه!»

اقتربتا من المدينة. فأصبحت المنازل أكثر التصاقاً وأصغر
حجماً. وبدأت الحدائق تتراعى لها غنية بالألوان مضيئة سحراً على

المدينة. بدت من على بعد المياه لامعة مندقعة في خليج فسيح يطل
على منحدر أوصلها إلى الطريق الرئيسي في بورت باتريك. لتجدا
منطقة ملأى بالمحلات التجارية وأناساً من كل شكل ولون ذاهبين
لشراء حاجاتهم من دون ازدحام في السير كما هي الحال في المدن.
التفتت ميغان إلى جين متسائلة:

«ألي متى تتوين البقاء في سارامانكا يا جين؟»

«كنت أنوي البقاء شهراً ولكن»

توقفت جين فجأة.

«هل طلب منك أبوك أن تبقي معه فترة أطول؟»

«نعم.»

«وهل ترغيبين في ذلك؟»

«بالطبع أريد ذلك، لكن»

«ولكن لديك بعض الأسباب التي تدفعك للتردد. أهي خالتك؟ أم
صديق لك؟»

ضحكت جين قائلة:

«لا. ليس هناك صديق لكنني وعدت خالتي بأن أحاول أن أعرضها
بعض ما أنفقته علي.»

قاطعتها ميغان وقد تورد وجهها ربما بفعل تهورها في الكلام:

«أنت لست مدينة لها بشيء. أنا أسفة يا جين، ليس هذا من شأني
ولكن حقيقة...»

ابتسمت جين وهي تقول:

«أنا أعلم. لكن كل ما في الأمر أنها امرأة وحيدة بانسة.»

«انتظري أسبوعاً أو أكثر ثم قرري.»

انحرفت بسيارتها في طريق فرعي ثم أدخلتها موقفاً للسيارات وراء مبنى كبير عصري.

كانت هناك لافتة ضخمة كتب عليها بحروف حمراء بحلات غرائت كان الجو رطباً داخل المحل الذي يسوده جو من الهدوء والأناقة. كان الطابق الأرضي مخصصاً للمأكولات حيث كانت التلاجات الضخمة ملأى بكل ما يمكن تخيله من أنواع الطعام. انتادت ميغان جين إلى المصاعد لتتقلق إلى الطابق الثاني. هناك غاصت قدما جين في سجادة حمراء سميكه.

انقضت الساعة التالية في التطلع والبحث وتجربة الثياب والضحك أيضاً. لم تكن جين تتصور أن شراء الملابس يمكن أن يكون ممتعاً إلى هذا الحد. فع خالتها كان يتم ذلك وكأنه عمل روتيني يجب أن ينجز في أسرع وقت وأقل كلفة ممكنة. أما مع ميغان فالتجربة لذيدة، فيها شيء من روح المغامرة.

وأخيراً وجدت الثوب المنشود. كان بسيطاً جداً، أو هكذا بدا. مجرد ثوب مسترسل حتى الأرضي في خطوط ملساء دون أية زركشة، حريزي ذي لون ناري براق بلا أكمام أما فتحة الرقبة فقد كانت مستديرة منخفضة الصدر والظهر مطرزة بشريط حريزي بني اللون على شكل أزهار صغيرة داكنة.

لم تكن جين في حاجة إلى رؤية وجه ميغان المذهول لتعرف أنها تبدو جميلة. قالت ميغان في إعجاب: «ما هذا يا جين، تبدين رائعة.»

«نعم يا أمي إنها تبدو كذلك.»

استدارت جين بسرعة لتجد كولن يخطو نحوها. كانت عيناه تحدقان في جين وحدها وأحست بالدماء تتدفق إلى وجهها.

«ماذا تفعل هنا كان من الواجب أن تكون في العمل.»

«إنها الحادية عشرة فترة الراحة. جئت ادعوكما إلى تناول شراب منعش.» «هلمي يا جين اذهبي واستبدلي ثيابك. ستجرب ما تبقى من الفساتين في ما بعد.»

خلعت جين الثوب وارتدت ثوبها القديم. كان قلبها يخفق بسرعة لم ترتد مثل هذا الثوب الكثير من قبل. فقد شعرت بأنها شخص آخر أثناء الدقائق القليلة التي ارتدت فيها الثوب. أحست بأنها جميلة تقريباً، نظرت إلى نفسها في المرآة مكشرة عن وجه ساخر في محاولة لإعادة نفسها إلى حالتها الطبيعية وهي تهمس يا لك من فتاة مغرورة ولكن برغم كل هذا ظل في أعماقها وهج داقي. وعندما جلسوا ليتناولوا قهوة مثلجة وقليلاً من الكعك رأت ميغان تنظر إليها غير مرة على نحو يوحي بأنها تشاركها في الحفاظ على سر ما.

تساءلت ميغان في إحدى فترات انقطاع الحديث:

«أين غافن الآن؟»

«ذهب إلى أحد الفنادق ليحضر اجتماع عمل.»

«الأفضل أن تعود إلى عملك، فلدينا أنا وجين كثير من العمل.»

«إنها تحاول أن تتخلص مني.»

«إنك تجعلني أبعد وكأنني دكتاتورة.»

قالت جين في نفسها: من الواضح أن هناك رابطة حب قوية

تجمع بينهما. ثمّت فجأة أن تذهب معها الى الحفلة بدلاً من غافن .
كانت تعرف أنها ستكون أكثر ثقة بنفسها اذا ما وصلت الى هذا الحشد
وسط أصدقاء بدلاً من أن يرافقها ذلك الرجل الذي ينظر اليها بطريقة
تحقيقها. فرغم تأكيداتها لميغان انها لا تأبه لآراء غافن، فهي تعلم
تماماً أنها تخشاه. حتى ذلك التغيير الذي لمسته فيه عندما فاجأها وهي
تعزف على الغيتار، كان مقلقاً بدوره. فهو رجل عميق شخصيته
معقدة ثمّت جين لو أنها لم تقابله.

أحست أن ميغان و كولن ينظران اليها فضحكت قائلة :
«أسفة لقد كنت أفكر في ثوبي الجديد».

ابتسم كولن وقال:

«لو كنت مكانك لما قلقت فذلك الثوب البرتقالي سيفرض نفسه في
الحفلة».

«الثوب ليس برتقالياً يا عزيزي، لونه ناري غريب».

«أسف يجب أن تعذرا جهل الرجال. والآن اسمح لي بالذهاب. مرا على
مكتبي قبل أن تغادرا المتجر لتسليما المشتريات موصية».

قالت ميغان وهما في طريقهما الى الطابق الاسفل من المحل:
«هل تسمحين لي بأن أصفف شعرك غداً؟»

نظرت نحوها جين مذهولة:

«ولكن - أنا»

«أرجوك يا جين. سأبوح لك بسر. لقد كنت أعمل منذ سنوات عند
أحد المزيّنين - أتصد قبل أن أتزوج. كنت أتمنى أن تكون لي ابنة أفعّل
لها كل هذا. أرجوك يا جين . قولي إنك موافقة».

«سأكون غاية في السعادة».

تأبطت ميغان ذراع جين حتى وصلت الى باب عليه لافتة
تقول خاص بموظفي المتجر.

دلفتا الى ممر فيه مجموعة من المكاتب ينبعث منها طنين آلات
تكليف الهواء وأصوات الآلات الكاتبة وطرقنا الباب الأخير.
«تفضل».

دخلنا مكتباً فخماً مكيفاً لتجدنا أن الشخص الجالس وراء المكتب
لم يكن سوى غافن غرانت.

«ميغان وجين ! هذا لقاء غير متظر».

«أنا أسفة يا غافن . تصوّرت أنّ كولن هنا. جئنا نأخذ حاجيات
جين فقد قال إنها ستكون جاهزة في مكتبه».

«آه فهمت. عدت منذ قليل وهو ذهب لمعالجة بعض الأمور المتعلقة
بالمتجر. أعتقد أن هذا هو ما تبحثان عنه».

رفع صندوقاً ضخماً وضعت فيه مشتريات جين تعلوها فاتورة
حساب. رمقها بسرعة ثم قال:

«الفاتورة محولة على حساب جون الخاص. سأجمله الى السيارة».

أحست جين وهي تمر من أمامه بعينيّه مشبتتين عليها وشعرت
بحرارة في عنقها انه يظن بكل تأكيد أنها بدأت تنفق اموال أبيها.
رفعت رأسها عالياً وهي تغادر المكتب. ان هذا سيعطيه مبرراً جديداً
ليشعر نحوها بجزيد من الاحتقار.

وبفعل الحرارة والوهج الشديد أحسّت جين بوخزة في جفنيها
ومرارة في حلقها وبانبهار في عينيها جعلها تضع نظارتين واقيتين من

الشمس.

قالت ميغان وهي تبحث عن مفاتيح سيارتها:

«شكراً يا غافن سنراك غداً عند سارة»

«الى اللقاء»

فتح باب السيارة لميغان فأسرعت جين الى الباب الثاني. وقد

قررت ألا تنتظره حتى يفتح لها الباب بدورها. اذا كان ينوي ذلك.

تبادلوا التحية وانطلقت بهما السيارة. نظرت جين الى السوراء

لتجد غافن يرقب السيارة ويعلو وجهه تعبير غامض. بادرتها

ميغان قائلة :

«أعتقد أنني عرفت ماذا تقصدين بكلامك عن موقف غافن منك»

«هل لاحظت ذلك أيضاً»

«نعم كان في وسعي أن أحس. يا للرجال كم هم بلهاء»

«ليس هناك شك في أنه فكر وهو يتفحص القاسورة كيف أنسى

أسرعت الى اتفاق أموال أبي»

«أعني لو تركتني أقول له الحقيقة»

هزت جين رأسها قائلة:

«دعيه يفكر كما يحلو له»

كانت جين تزداد توتراً كلما اقترب موعد الحفلة. ورغم تأكيدات

ميغان لها من أنها تبدو فائنة فهي تعرف أنها تعوزها الثقة الكافية

لتظهر أمام هذا الحشد من الناس وكأنها تقف أمام اللجنة الفاحصة في

الامتحانات.

كان ابوها قد ذهب ليستريح فترة ما بعد الظهر. وعندما حضرت

ميغان في الخامسة لتصفيف شعر جين نزل للملاقاتها. كان يبدو

شاحباً للغاية فصاحت جين:

«هل أنت في خير؟»

«سأكون على ما يرام فلا تقلقي. أنا أشعر فقط بالاجهاد اذهبا الآن

وتذكرا أنني أريد أن أرى الثوب لأعطي رأيي فيه»

في الطابق الأعلى. وبينما كانت جين تغسل شعرها الحريري

الطويل جلست ميغان في استرخاء تناهعها. قالت جين :

«مم يشكو أبي بالتحديد؟»

«ان ماك لا يعرف. فبين حين وآخر تفاجئه تلك النوبات فيفقد القدرة

على استخدام يديه لعدة ساعات. من الممكن أن يكون السبب بعض

الاضطراب العصبي. وهذا هو ما يعتقد ماك وهو يأمل في أن

تتمكني أنت من اقناعه بعرض نفسه على أخصائي وبالنسبة

ماك سيكون في حفلة اليوم سأعزفك به وحينذاك يمكنك أن

تحدثني معه في هدوء بينما أجلس أنا مع والدك»

«اتفقنا»

جلست جين تحفف شعرها في غرفة نومها وأنشأ ذلك أخذت

تجاذب أطراف الحديث مع ميغان. امتد حديثهما ليشمل الحياة في

الجزيرة :

ميزاتها وسيئاتها. هناك قدر محدود من الفقر في الجزيرة. فسكانها

الأصليون يعملون فقط في صيد الأسماك وزراعة الفاكهة والسكر

وجوز الهند. هناك أيضاً صناعة الاشرطة الحريرية المفزة وهي صناعة

مزدهرة. فاشترط سارامانكا تتمتع بشعبية كبيرة بين السياح.

قالت ميغان وقد تذكرت شيئاً:

«يجب أن تشتري بعض تلك الاشرطة المطرزة عندما نذهب الى بورت باتريك مرة ثانية سأساعدك في استخدامها في تطريز ثوب أو قميص للنوم فهي رائعة الجمال وفي الواقع أنه لو كان لدينا وقت كاف لكنا استخدمناها في حياكة ثوب لحفلة اليوم. كان سيكون مدهشاً. شرائط مطرزة بيضاء، فوق ثوب حوري قرنفل اللون.»

«فعلت ما فيه الكفاية بالفعل.»

«سندع ذلك للمرة القادمة.»

«والآن حدثيني عن سينات الجزيرة، فهي لا يمكن أن تكون جنة. حتى لو بدت لي كذلك.»

«نتعرض الى عواصف عنيفة ومخيفة تتخللها أمطار غزيرة وهو أمر مستغرب لجزيرة إستوائية ولكن هذا هو سبب الحضرة الزاهية. كما أننا أحياناً نتعرض لغزو من أسراب الذباب ولكن ذلك نادر جداً.»

تراجعت ميغان عدة خطوات لتأمل شعر جين. نظرت جين الى صورتها في المرأة وهي لا تكاد تصدق ما ترى. كان شعرها الذي ينساب باستقامة عادة على كتفها مشدوداً الى الوراء ثم الى أعلى وقد ثبتته ميغان ببراعة بدبابيس لينساب بشكل شلال من الشعر الناعم اللامع المتموج ليغطي عنقها.

«هذا عظيم يا ميغان، أنت حبيبتي حقاً.»

طرقت إلن باب غرفة نومها وقالت:

«لو عرف أبوك أنني هنا لأطاح برأسه. ولكن يجب أن أقول لك فأبوك ليس في حالة تسمح له بالخروج الليلة، هذه هي الحقيقة.»

استدارت جين في فزع وقد تهضت من مقعدها:

«ماذا هناك يا إلن؟»

«لا تقلقي. ولكنه عندما يكون في الحالة التي هو فيها الآن فالشيء الأمثل له هو أن ينام مبكراً ويأخذ قдрأ وافرأ من الراحة.»
«أذن يجب ألا نذهب الى الحفلة؟»

«هذا هو الأمر الذي جئت أحدثك فيه. انه يعرف انك ستقولين هذا وهو عازم على ألا يفسد عليك سهرتك الأولى، ولذا سيرفض وسيبذل جهداً لاتناعك الأمر الذي سيزيده توقعاً.»

أرمأت جين برأسها وقد بدأت تدرك الغرض من مجيء إلن:
«أذن يجب أن أقول له أنني سأذهب الى الحفلة بمفردي.»

توقفت بعد أن كانت قد اتجهت صوب الباب.

«لا لن أستطيع. كيف أذهب وأتركه يا إلن؟»

«إذا قلت له انك لن تذهبي الى الحفلة، فانه سيسارع الى القول انه ليس مريضاً وأنه على ما يرام. انه رجل عنيد.»

هزت إلن رأسها في أسى واستدارت خارجة من الغرفة وقد تدلت كتفها في يأس. أمسكت جين بذراعها قائلة:

«لقد هزمتني. كل ما في الأمر أنني لا أريده أن يظن أنني أردت أن أذهب بمفردي ولكن اذا كان هذا لمصلحته.»

«طبعاً، ان ذلك لمصلحته بالفعل. والى جانب ذلك فانت ستذهبين مع السيد غافن وأبوك متأكد من انه سيعتني بك.»

صاحت جين:

«لا لقد نصيت هذا.»

وعندما رأت إلن تقطب جبينها في حيرة بادرت قائلة:
«أعني أليس الواجب أن تبلغه هذه التطورات الجديدة؟»

«لا يا عزيزتي سيصل بعد لحظات وهو سيسعد بصحبتك».

هست جين لنفسها: نعم أنا واثقة من أنه سيسعد بذلك.

أصبح الأمر الآن أكثر سوءاً. أمامها الآن رحلة مرتقبة مع ذلك الرجل - هما الاثنان فقط وليس لديهما من حديث سوى بالطبع أنانيتهما في ترك أبيهما المريض وحده. عادت بتكاسل الى المرأة. ثقت لو لم تذهب، لكن ليس أمامها خيار الآن. طالعها وجهها في المرأة وهو أكثر شحوباً من المعتاد، وعيناه واسعتان تلمعان في ضوء الصباح. نظرت لصورتها في المرأة قائلة: استمرى، إشعري بالشفقة على نفسك.

ومع تلك الكلمات القليلة الغريبة توصلت الى قرار. دعكت وجنتيها لتعيد إليهما لونهما ونظرت بتحدٍ الى نفسها. بكل عناية وحذر بدأت جين تضع المساحيق على وجهها دون أن تدرك انها ليست في حاجة الى أي شيء من هذا.

تعثرت جين وهي تهبط الدرجات، فشقتها الجديدة في ذاتها، وليدة التحذري، تخلفت عنها للحظات عندما سمعت أصواتاً تبعث من غرفة الجلوس. فضمت شفتيها ووقفت أمام الباب المغلق يمتلكها ذعر مفاجيء. لم تستطع أن تحتاز ذلك الموقف. ولكن عليها أن تفعل ذلك.

فتح الباب علك مصراعيه الموقف. ولكن عليها أن تفعل ذلك. فتح الباب على مصراعيه فجأة قاطعاً عليها أفكارها رفعت جين يدها الى صدرها وهي تلهث.

ظهر غافن وقد بدا مندهشاً مثلها. ثم تراجع قائلاً:

«أنا أسف».

كان صوته رابط الجأش واثقاً. نظرت اليه جين للحظات عاجزة عن النطق. لاحظت أنه كان يرتدي سترة بلون الطلي الصغير رائعة الجمال وقميصاً ناصع البياض مبرزاً لونه الأسمر الداكن. كان شعره مشطاً الى الوراء لامعاً. أما عيناه الرماديتان فكانتا ترقبانها بفتور. أخذت جين نفساً عميقاً ثم ابتلعت ريقها. ها هي الآن مستعدة لمواجهة.

«شكراً».

قالت لها ومنحته بسمة صغيرة وهي تدخل الغرفة متجهة الى أبيها.
«قالت لي إلن إنك لست على ما يرام».

وضع يده المتعبة فوق ذراعها وجذبها اليه:

«صدقيني، أوامر إلن لا تعصى! لقد قررت أنني لست في حالة تسمح لي بالذهاب. تتقصني الشجاعة لأتحداها. أنت تعرف إلن يا غافن».

هر غافن كتفيه وبقي لحظات ثم قال:

«هذه هي الحقيقة. فمن يعصاها يجب أن يكون أشجع منا نحن الاثنين».

«لم أكن أريد أن أذهب يا أبي عندما أبلغتني إلن أنك».

«أذهبي يا جين. غافن سيوفر لك كل الرعاية. إستمعي بوقتك».

أنت تبدين رائعة الجمال وأنا فخور بك يا عزيزتي».

«شكراً يا أبي».

سارت جين نحو الباب كالغنياء لكنها كانت تعي أن غافن

يقف في انتظارها محكاً بالباب.

سارا نحو واجهة المنزل حيث كانت تقف سيارة المرسيدس البيضاء.
فتحت لها باب سيارته في صمت. جلست جين وأحست بصدغيها
تنبضان بفعل هذا التوتر المفاجيء. وبعدما أقفل باب السيارة خطا نحو
مقعد القيادة. وانطلقا.

٤ - الحفلة

قاد غافن سيارته برشاقة وسأل جين:
«هل تحبين الاستماع الى بعض الموسيقى؟»
«نعم أرجوك.»

فكرت أن ذلك سيوفر عليها على الأقل حرج فترات الصمت في
حوارهما - بل ربما لن يكون هناك حوار على الإطلاق.
كان قلبها يخفق. لم يكن خيالها الذي صوّرها ذلك ولكنها أحست
بالفعل وكأنّ توتراً يغمرها بموجات تكاد تكون محسوسة. حدثت نفسها
قائلة:

«أنه يكرهني وأنا عرفت ذلك فلماذا لا أتجاهل تلك الحقيقة. لم تكن
لديها أسلحة مماثلة تقاومه بها عدا سلاح واحد أتوئنتها. ففي أعماقها
كانت تعلم أنه برغم عجزه كانت هي التي تملك المبادرة. فضعفها
كان في الواقع هو سبب قوتها.

«متى تنتهي تلك الحفلات عادة يا غافن؟»
«تستمر طوال الليل أحياناً. ولكن تستطيعين والانسحاب ساعة

تسائين.

كان صوته رقيقاً يفتقر الى الحماس لكنها لاحظت أن يديه كانتا تضغطان على عجلة القيادة قليلاً. انها تفضل أن تغلد الى النوم بعد منتصف الليل مباشرة. لكنها لن تطلب منه أن يعيدها الى المنزل تراهي لها وجهه وهي تطلب منه أن يعودا والحفلة في أوجها.

كانا يتجهان الآن صوب بورت باتريك لكن كل شيء بدا مختلفاً الآن في ظلمة الليل وكأنه تبدل بفعل سحر السماء السوداء المخملية. ليبدو كأرضي العجائب المرصعة بالنجوم. تنهدت بعمق وقد أحست أنها وقعت بالفعل في هوى تلك الجزيرة وسحرها الغامض. ياليت كولن هو الجالس جوارها لكانت شعرت معه بالراحة. تنعم بدفء إعجابه الصريح بدلاً من شعورها الحالي بالذنب لأنها تضيّع وقت هذا الرجل المضطر لصاحبيتها وتذكرت أن كولن وميغان سيكونان في الحفل، مما جعلها ترتاح.

حقت حدة التوتر قليلاً عندما نجحت جين في الاسترخاء. ساعدتها الموسيقى على ذلك لأنها وفرت لها شيئاً يمكن أن تركز عليه انتباهها. كانت كل حواسها مستيقظة مركزة على ذلك الرجل الجالس قربها يس فراعها مساً خفيفاً كلياً حرك جهاز السرعة. كانت قسماته كالصقر وهو يراقب الطريق أمامه، الأمر الذي شجعها على المخاطرة بإلقاء نظرة خاطفة عليه. مرت الأشجار والمنازل من جوارها في شكل خياب رمادي اللون حين اقتربا من المدينة انعطفت الى اليسار في طريق ضيق مرتفع. كان القمر ساطعاً وقد أغرق الجزيرة بنوره الخافت وتذكرت ليلتها الأولى في سارامسكا عندما قامت بتلك التزهة

المشؤومة.

كانا وحدهما الآن تماماً وسط تلك الظلمة وقد تركا المدينة وراهما. كان الطريق ضيقاً كثيراً يبط أبيض منبسطة أمامهما. عن بعد كان ضوء القمر يلعب قوق مياه المحيط الداكنة. صاحت في اندفاع وقد نسيت تماماً أنها في صحبة غافن :

«يالللروعة...»

«نعم انها حقاً رائعة.»

خفف من سرعة السيارة ثم توقف تماماً. لماذا فعل ذلك؟

جاءت ضحكته المقتضبة لتؤكد لها أنه قرأ أفكارها وقال:

«اعتقدت انك قد تحيين أن تنزلي من السيارة لتلقي نظرة أكثر

وضوحاً.»

«أشكرك.»

فتحت جين باب السيارة وهبطت وكأنها تخشى إثارة غضبه ان هي رفضت. وحاولت أن تقاوم ذلك الاحساس بالخوف الذي داهمها فجأة.

انه لا ينوي الهجوم عليها فلماذا هذا الخوف؟

راحت تحملق بعيداً في ذلك المنظر الشامل الممتد أمامها. إنه يقف قربها الآن ابتعدت قليلاً. وبلا أي تفسير تنازعته رغبة قوية في العودة الى السيارة.

ولم أكن أنوي أن أمسك.»

قالها بنبرة خشنة وكأنه قرأ أفكارها.

أحست جين وكأن شيئاً ينهار في داخلها فقالت وهي تستشيط

غضباً:

«لم أكن أتصور أنك ستفعل.»

«كلا ؟ قفرت وكأنك ظننت أنني سأحاول الاعتداء عليك.»

«هذا ما صوّره لك خيالك.»

استدارت عائدة الى السيارة تاركة إياه في حالة غضب، لحق بها دون أن ينس بكلمة واحدة وانطلقا بسرعة، دون أن يتبادلا أية كلمة.

لاح المنزل من بعيد يشتعل ضياءاً، نبخرت قوة التحدي التي كانت لدى جين. استقامت في مقعدها. حملت في السيارات الكثيرة المصطفة أمام المنزل. ثم انفتح باب البيت لتجد على عتبة فتاة طويلة في حالة من الضو الذهبي تصيح قائلة:

«عزيزي غافن . الآن نستطيع أن نبدأ الحفلة.»

أخذت جين ترقبها وقد وقفت مهملة في الحديقة، بينما ساره تشبّ على قدميها لتعانق غافن مرحبة، ردة عليها قائلاً:

«مرحباً يا ساره . تبدين جميلة للغاية.»

أطلقت ساره ضحكة رنانة ثم مدت يدها ناحية جين وكأنها قد تذكرت وجود شخص آخر معها:

«أهلاً، من المؤكد أنك جين، لطيف جداً منك أن تحضري.»

نظرت إليها جين . انها فتاة جميلة، كل شيء فيها كان يوحي بأنها تعرف كيف تعني بنفسها بدءاً بشعرها الحريري الأشقر حتى أصابع قدميها التي طُلت من تحت ثوب أبيض بسيط يخطف البصر، ثناياه الشفافة تطفو حولها مطوقة فذها النحيل. كانت عيناها واسعتين داكنتين ترقبان جين في عملية تقييم صريحة ماهرة.

«كم تبدين رائعة. تفضلي. أنا واثقة من أنك في حاجة الى قدر من الانتعاش بعد رحلة الطريق. ابحث عن مكان توقف فيه سيارتك يا حبيبي وسأعني أنا بجين.»

قالت له يا حبيبي. تساءلت جين عما إذا كانا كذلك بالفعل . إنها لن تدهش لذلك، فقد حياها بحرارة. لم تكن تتوقع أن تعجدها فيه. اصطاحت ساره جين الى غرفة نوم ذات أثاث فخم وأشارت الى متضدة الزينة قائلة:

«تفضلي يا جين . اخدعي نفسك بنفسك.»

ابتسمت ساره فجأة ثم رمقتها بنظرة أخيرة وخرجت.

تهاوت جين على أقرب مقعد وهي ترتعش . أغلقت عينيها لحظة وأحسّت بأنها تريد أن تهرب وتختبئ. كان مسلك ساره وكل ما يحيط بها محسباً بدرجة جعلت جين تشعر أنها صغيرة تافهة. أحسّت وكأنها تشترك في مسابقة جمال. تفحصتها عينا ساره الجسيلتان القاسيتان وكأنهما عينا حكم في مسابقة، يقيم ويضع الدرجات ثم يصرف النظر عنها. كانت جين ساذجة جداً عشت انها لم تدرك مهارة ساره في اخفاء مشاعرها الحقيقية وكيف أنها استشفت بذلكاء. حياء جين الفطري الدفين وعرفت كيف تستغله لمصلحتها.

بيدين مرتعشتين وضعت جين أحمر شفاه . تنفست تنفساً عميقاً ثم التجهت نحو الباب واستمعت الى أصوات الشرشرة المنبعثة من الطابق الاسفل. قاومت شعورها بالخوف ثم نزلت درجات السلم في سكون وهي متشبثة بالدرازين الحديدي أملة في أن تتسل الى الداخل

وتبحث عن ميغان قبل أن يراها أحد.

جاء صوت سارة واضحاً عالياً:

«انظروا جميعاً، ها هي جين.»

كانت سارة في انتظارها، وبمجرد أن اقتربت من الغرفة، ساد صمت مفاجئ، وتوقف الحديث والضحك تماماً عندما أخذ الجميع يراقبونها وهي تسير مع سارة. كانت جين ترتجف لكنها في تلك اللحظة رأت بين الحاضرين وجها متهاكماً تعلوه بسمة ساخرة. كان ذلك الوجه هو وجه غافن. تنفسَت في عمق، ثم أحست باصرار ينمو في داخلها لمواجهة الموقف ابتسمت فجأة بينما كانت سارة تقول:

«أعرفكم بجين، ابنة جون أوغستاس ريتشي.»

وراحت جين تصافح رجالاً ونساء يرتدون ثياباً أنيقة، وجميعهم أيضاً يقيمونها من وراء ابتساماتهم وتحدياتهم التقليدية التي انتهالت عليها. اجتازت كل هذا بلا تردد بعد أن استعادت ثقتها بنفسها بسبب بسمة ساخرة على وجه رجل ونجحت في ألا تعطي أصدقاءه ذرة من الاهتمام.

بدأ الحديث يتصاعد من جديد تدريجياً وكان في وسع جين الآن أن تلتقط أنفاسها بحرية واسترخاءً إذ أحست بالضغط يتحسر من حولها بعد أن تحول اهتمام الحشد إلى قادمين جدد. أما غافن فقد اختفى وسط الحشد.

في تلك اللحظة وجدت جين نفسها قرب والدتها سارة التي قالت لها:

«أنا واثقة من أنك في حاجة إلى هذا المرطب. يا جين، إشر بي

يا عزيزتي.»

«شكراً.»

«هل جئت أنت و غافن وحدكما؟ أنا أسفة لأن والدك لم يحضر. لكن من المؤكد أن غافن ظريف جداً أليس كذلك؟ أنه يشكل مع سارة ثنائياً رائعاً، أليس كذلك؟»

«نعم بالتأكيد. واطن انها سيعلنان خطوبتهما قريباً.»

«لا تقولي شيئاً من هذا. فالأمر مازال سرّاً.»

«لا لن أقول شيئاً على الإطلاق.»

قالت جين ذلك ثم رشفت من مشروب ذهبي تناثرت فقاعاته من كأسها ليأخذ طريقه إلى جوفها في رذاذ مثليج مسموع.

استأذنت السيدة سمايث لتجد جين نفسها تقف وحيدة تماماً وسط بحر من الوجوه الضاحكة، منعزلة وكأنها تقف في جزيرة مهجورة. ودون تفكير رفعت كأسها وابتلعت كل ما فيها دفعة واحدة.

ثم سمعت صوتاً يقول:

«أنا رائعة فعلاً.»

التفتت إلى الورا لتجد وجهاً يشوشاً لرجل متوسط العمر. كان أصلع الرأس ذا أنف مدبب وعينين ساحرتين أهداب داكنة.

«أنت الدكتور ماكدونالد.»

«كيف عرف ذلك يا جين؟»

«قالت لي ميغان أنك ستكون في الحفلة كما أنه لم يكن ممكناً أن نفترقي تلك اللهجة المحببة. ولكن كيف عرفتني أنت؟»

«أنت أيضاً تطابقين ما سمعته من أوصافك، وقد رأيت سارة وهي

تخصك بتلك المعاملة وليوني أيضا كنت متدساً وراء تلك الزهرية
عندما كانت تسرد عليك تلك القصة المعادة عن سارة وغافن.
«ماذا تعني بتلك المعاملة؟»

رفع حاجبيه متدهشاً:

«ألم تفهمي؟ قولي لي ماذا كان شعورك وهي تفودك صائحة أمام هذا
الحشد بعد أن أدركت خجلك. دعينا نجلس بعيداً في ركن هاديء. أريد
أن أحدثك عن أبيك.»

وجدت جين نفسها تجلس في جوار الرجل الودود، وهكذا أصبحت
الحفلة أكثر بهجة. أزدحمت الغرفة ومرت الكرسون بالمشروبات التي
كانت تختفي قبل أن يتقدموا بضع خطوات. ظهر غافن فجأة وألقى
نظرة عليهما ثم اختفى وقد ابتلعه الزحام. جلس ماك وجين يتحدثان
غافلين عن كل هذا إلى أن ظهرت ميغان، حيثما بسرور وجلست
قربهما قائلة:

«كنت أود أن أكون هنا ساعة وصولك يا جين. أين جون؟»

«لم يستطع المجيء.»

«أذن جئت أنت و غافن وحكما؟»

«نعم.»

نظرت ميغان إلى جين وبدت وكأنها كانت على وشك أن
تقول شيئاً ثم عدلت.

تحدث ماك عن طريقة استقبال سارة لجين. فقالت ميغان
لجين:

«لماذا كنت أود أن أكون هنا وقت وصولك لكنني واثقة أنك كنت رائعة

كما ذكر لي ماك.»

وصل إلى أسماعهم صوت موسيقى منبعث من مكان آخر من
المنزل، ونغمات متنافرة واضحة في محاولة لضبط أوتار الآلات
الموسيقية. قالت ميغان:

«سيد أون الرقص الآن، وبعد ذلك سيفتتحون مائدة الطعام.»

تحولت الحفلة إلى ميدان صخب، كتلة دائرية من الألوان كالزجاج
البراق، كتلة من الضجيج والمتعة، بعد أن احتست جين كأسها
الثانية وتولى كولن الذي وصل متأخراً رعايتها. اندفعوا نحو فناء
خلفي واسع حيث كانت الفرقة الموسيقية تعزف. كان الغناء ممتداً نحو
مروج خضراء حيث كان المدعوون يرقصون على النجيل المضاء
بالأنوار وكذلك على أرضية الفناء الحجرية وقد تناثرت فيها أصص
النخيل وتوسطتها نافورة صغيرة تتناثر منها المياه في شكل جميل.

قال كولن لجين وهو يراقصها:

«أنتك تشعرين ضجة يا جين.»

«دعك من هذه الدعايات.»

اجترت جين خجلاً وتعشرت خطواتها وقد ساءتها مداعبته الساخرة.
أمسكها بقوة ليحول دون تعثرها من جديد. وهمس قائلاً:

«أنا لا أمزح يا عزيزتي. صدقيني. تبدين رائعة الجمال.»

كانت الموسيقى صاخبة تشيع حيوية. تعاقبت بعد ذلك عدة
رقصات رأت في أحداها غافن وسارة يرقصان معاً. كانا يحتضنان
بعضهما البعض بقوة وكأنهما لا يشعران بوجود أحد.

فجأة أحست جين بالدوار وقالت لكولن:

«أيمكننا أن نتوقف عن الرقص قليلاً. لقد تعبنا»

جذبها الى الخارج قائلاً:

«أنت في حاجة الى هواء نقي يا عزيزتي»

في الهواء الطلق أحست جين برعشة البرد. أحاطها بذراعه قائلاً

بصوت عذب:

«تجسست حالتك اليس كذلك؟»

أدارت نحوه وجهاً ضاحكاً وهي تقول:

«نعم أعتقد ذلك.»

«سأمارس أساليب الشريرة معك.»

ابتعدت وهي تقول:

«شكراً على تحذيرك إياي، والآن يجب أن نعود الى الحفلة.»

عادت الى الرقص بكل حماس وقد قررت ان تندمج في الجو.

لم يكن في وسعها أن تتصور كيف كانت تبدو فاتنة، هيفاء نحيلة في ثوبها الجميل، شعرها لامع بشرتها تشع بالصحة وهي تضحك وترقص حتى انقضى المساء.

وفي إحدى الرقصات كانت مع جوني ميليا وهو شاب جذاب عرف أنه زير نساء فرأت غافن يقف وحيداً. بدخن سيكارة كانت نظرت اليها قاسية قاتمة. ومجدياً لغافن ابتسمت لجوني. وأحست بقدر من الرضى عندما رأت غافن يستدير في سرعة ويسير مبتعداً.

ساعدها الطعام الذي تناولته على استعادة قدر من اتزانها. دخلت هي و كولن وميغان وماك وانضموا الى المتزاحمين حول العشاء المعد بأناقة. وبينما كانوا يسرون ممسكين بأطباقهم ينتفون شرائح الدجاج

واللحم وعشرات الأصناف من الأطعمة الغريبة والمبهجة سمعت صوتاً يقول:

«هل تستمتعون برقصكم؟»

استدارت لترى غافن.

حيثه ميغان قائلة:

«مرحباً أيها الغريب، لم نرك كثيراً اليوم.»

إتسم ابتسامة مقتضية وقال:

«كنت أقوم بجولة بين المدعوين.»

استدار نحو جين التي كانت تقف مع كولن وقال لها:

«هل كانت الحفلة كما توقعين؟»

«نعم، وهل هي كذلك بالنسبة اليك؟»

«بالقدر الذي توفره أية حفلة.»

لاحظت أن صوته كان قاتراً. ولم تعرف السبب الذي دفعها الى ان ترد عليه بفتور مماثل بقولها:

«عندما تشعر بانك لم تعد راغباً في السهر ارجوك ان تبلغني.»

أدارت ظهرها له ثم التقطت قطعة كبيرة من الدجاج.

«سأفعل، هل تأذنون لي؟»

وهنا قال كولن

«لماذا كل هذا؟»

استدارت ناحيته وعيناها تلمعان في الخد:

«هل كنت فظة؟»

«الناس لا يتحدثون هكذا مع غافن.»

«هذا يدعو أكثر للأسف»

ردت جين بهذه العبارة ثم أحسّت بالتندم وسمعت ضحكة ميغان المقتضية فاستدارت:

«أحسنت صنعاً يا جين»

تنهدت جين في عمق. هناك شخص واحد على الأقل في جانبها. لقد بدأت بالفعل تندم على تهورها في ردها على غافن. فهي لم تكن يوماً فظة مع أحد لكن غافن لم يكن نمطاً عادياً من البشر. أحسّت جين بقدر من التحسن عقب العشاء. أقبلت سارة نحوهم مبتسمة وهي تطرف بأهدابها في حياء ناظرة إلى الرجلين وقالت:

«أرجو أن تكونوا جميعاً مستمتعين بوقتكم»

ثم مدت يدها وأراحتها على ذراع جين قائلة:

«سررت بمجيئتك يا جين. أرجو أن تأتي إلينا مراراً. ولعلنا نقضي يوماً معاً في بورت باتريك»

انسلت مبتعدة فتشهد ماك :

«باللعجب، أنت تحظين بالمقاومة والتكريم. إن سارة لديها مبرراتها لذلك فهي تتوقد إليك حتى تضمن ألا تحاولي سرقة صديقها»

نظرت جين وميغان كل إلى الأخرى وانفجرتا في الضحك دون أن تقدما لماك تبريراً لمسلكتها هذا.

بدأت جين في وقت متأخر من الحفلة تشعر بالاجهاد، بل ربما المرض أيضاً. كانت تجلس هي وميغان وحدهما في ركن هادئ. نسيباً، وتلفتت جين حولها في يأس. كانت تحسن بحيات العرق تنتشر فوق جبينها. همست قائلة:

«سأذهب إلى الحمام»

سألنها ميغان في قلق:

«هل أنت في خير؟»

«نعم لكنني أحسّ بقدر من الاجهاد، فأنا لست معتادة على السهر، لن أغيب..»

«سأتي معك»

«كلا لا تزعجي نفسك»

لم يلاحظ أحد انسلالها إلى الطابق الأعلى. وفي الحمام، غسلت وجهها ويديها، جلست ساكنة للحظات، ثم سارت عبر رواق غطته سجاجيد مترفة أخذت تتأرجح بشكل مخيف، كظهير مركب في عاصفة. مرت جين بغرفة نوم مفتوحة، لترى سريراً نظيفاً ورضخت لاغراء قوي، قد خلّت بشبات، خلعت صندلها، ثم رقدت وهي تنهد في راحة. افادت على يد تهزّها، وصوت أت من بعيد.

«جين هل أنت في خير؟»

فتحت عينيها لترى خيالاً مرتعشاً لرجل وقد وقع عليه الضوء الأثني من الباب المفتوح. أحسّت بالذعر، حاولت جاهدة أن تجلس لكنها شعرت بدوار، ثم استعادت اتزانها بالقدر الكافي قرأت كولن يقف في جوارها.

«كولن يبدو أنني استغرقت في النوم كم من الوقت مضى علي وأنا هنا»

ضحك وهو يجلس قريبا على السرير قائلاً:

«حوالي ربع ساعة فقط كانت أمني قادمة تبحث عنك لكنني تطوّعت

للقيام بالمهمة. أشعرين بأنك مريضة؟

قلت جين محاولة أن تجد وضعاً أكثر راحة فتطسوع كولن لمساعدتها.

«كلا. كنت متعبة فقط - كانت رأسي تدور. أنا أسفة.»

«لا تقلقي. اسمعي، هل تودين أن أصحبك الى المنزل؟ قاربت الساعة الثانية.»

انسعت عينا جين وهي تقول:

«هل يمكنك أن تفعل ذلك؟ من المفروض أن أذهب مع غافن، لكنني واثقة أنه يرد أن يمكث حتى النهاية وأنا لست معتادة على الحفلات الصاخبة.»

«اسمعي، سأنزل لابلغ غافن بأنك ستأتين معي.»

توقف فجأة عن الكلام عندما سقط ظل شبح على أرض الغرفة المظلمة أعقبه دخول غافن نفسه. ساد الصمت هنيهة بينما كان الأخير ينظر الى جين وكولن وقد خلا وجهه من أي تعبير. ثم قال «عفواً ماكنت أريد الدخول، لكن خيل إلي أنني سمعت شخصاً يناديني.»

أحست جين بوجهها يشتعل وسط الظلمة التي رجمتها من عينيه. لم تنجح نبرته اللامبالية في اخفاء الاحتقار الحاد الذي ظهر في كلماته. أبعاد كولن يده عن جين قائلاً:

«كنت على وشك أن أنزل لأراك ياغافن. قلت لجين أنني سأصحبها الى المنزل.»

«هل تودين أن تنهيني الآن يا جين؟»

«نعم.»

«أذن سأصحبك.»

«لكن»

بادرته جين معترضة حتى لا تضطره الى ترك الحفلة قبل نهايتها.

غير أن كولن أسرع الى القول:

«حسنًا اتفقنا.»

كانت تعرف برغم الظلمة الجزئية التي كانت تحيط وجه غافن، أن عينيه كانتا مركبتين عليها وهو يقول:

«أنا أحضرتك وأنا وعدت والدك بأن أعيذك الى المنزل.»

كانت تنتظر أن يعالج كولن الأمر بطريقته، أن يعيد كل شيء الى وضعه الطبيعي ولكنه لم يفعل بل هرّ كتفيه ونظر الى جين وكأنه يرد أن يقول لافائدة من الجدل ثم قال:

«اتفقنا ياغافن، فأنت الرئيس.»

ساد صمت مفاجيء. ثم استدار غافن خارجاً.

سما وقع قدميه وهو يبتعد فأطلق كولن زفرة ارتياح عميقة:

«انه طيب ومجتون في أن.»

جلست جين وتثبثت به كمن يتشبث بطوق نجاة وقالت:

«لماذا - لم تصر على اصطحابي؟»

«لا مجال للنقاش مع غافن. صدقيني، فأنا أعرفه.»

التفتت جين حقيبتها وهبطت السلم مع كولن ثم سارت نحو

الباب وهي تشعر وكأنها ذاهبة الى الجحيم.

٥ - المواجهة

لَوَحَتْ جَيْنٌ لِكَوْلِن . ثم استقلت السيارة. أحسّت وكأن الصلة الأخيرة بينها وبين المدنية انقطعت لحظة سمعت صوت انغلاق الباب الخارجي للمنزل. لم يكن في وسعها أن تعبر عن مدى تعاستها عندما لاحظت غضبه البارد مثل الصقيع. جلست متصلة في مقعدها لا تجسر على الاسترخاء خشية أن تستغرق في النوم. كان تصوّرها بأنها ستقوم برحلة تستغرق ساعة كاملة مع ذلك الرجل المتجهّم الوجه يخيفها. بدأ يقود سيارته بسرعة مبتعداً عن المنزل الذي أخذت جَيْنٌ ترقبه وهو يتقهقر كلّما انطلقا بسرعة نحو الظلام. سألها وهو يشعل سيارته:

«هل يضايقك أن أدخن؟»

«كلا».

وردّت وهي تفكر كيف أنها لا تجرؤ على الاعتراض. لا أحد يستطيع مناقشة غافن، ولا حتى كَوْلِن الذي نفذ ما أمره به غافن في غرفة النوم. كم كانت تتمنى لو أنها لم تذهب الى هناك.

كانت تتمنى أيضاً لو أنها لم تتحدث بمثل تلك الحدة في غرفة الطعام.

ملأت رائحة التبغ المعطرة السيارة، فنظرت جَيْنٌ من النافذة وهي تتمنى ألا يدفعها ذلك الى الشعور بالغشيان. كانت رأسها تؤلمها ألماً أخذ شكل النبض البطيء الثابت الموجع، وكانت تشعر وكأن عينيها مليتان بالرمال. لم تستطع أن تتحمل ذلك الصمت الثقيل أكثر من ذلك، فأنفجرت قائلة:

«أسفة لأنني اضطررتك الى ترك الحفلة».

«أحقاً أنت أسفة؟»

توهج السيكار وهجاً أحمر حين أدار رأسه لينظر اليها.

«نعم أسفة. ولهذا السبب كنت أود أن أعود مع كَوْلِن».

«هل كنت ستدعيني يصحبك الى المنزل؟»

«نعم، فانا أعلم أنك كنت تود أن تبقى حتى نهاية الحفلة».

«قلت لك أن تبلغيني عندما تؤدّين الرحيل. فانا عندما أتعهد بشيء

أحرص على تنفيذه. قلت لوالدك أنني سأعيدك سالمة الى المنزل،

وسأفعل ذلك دون أي اعتبار للوقت».

«كان أبي سيتفهم الموقف».

«ليس هذا هو محور الجدل، أليس كذلك؟»

أحسّت لهجة احتقار حادة في نبرته. أصرت على أسنانها بمرارة

متسائلة في تهكم:

«أظنه شيئاً رائعاً أن يبلغ المرء حد الكمال، أن يفعل دائماً الشيء

الصواب؟»

نفض سيكاره بعناية وضحك قائلاً:

«لا تجعلينا ننحط الى مستوى الاهانات الشخصية.»

لم تكن في ضحكته أي نوع من الدعاية. شيكيت جين يدها بقوة وقد ملأها غضب جارف. نظر اليها، فرأى قبضتها المتوترة كما لاحظ تنفسها السريع واستطرد:

«لو كنت مكانك لمحاولت أن أسترخي. أمامنا رحلة طويلة.»

«كيف استرخي وأنا معك؟ انك تظهر تماماً كم أنت متضايق من مهمتك أنا أشعر بذلك.»

وضعت يدها على جبهتها المتألّمة، ضاغطة بقوة.

ضغط بقدمه على الفرامل فوقفت السيارة بسلامة. استدار قائلاً:

«حسناً، أفصحني عما في صدرك. ماذا تعنين بالضبط؟»

أشاحت جين بوجهها. لم يكن هناك ضوؤ أو صوت. كانا وحدهما في صحراء شاسعة من الظلام، والآن أدركت لماذا استسلم كولن بتلك السرعة. فالقوة التي يستع بها هذا الرجل خارقة. كان ينتظرها تتكلم وكأنه غمر متأهب للانقضاض.

لم يكن لديها أسلحة لمحاربه بها، ولأنها كانت تعرف أنه ليس في وسعها أن تفوز في حرب كهذه فقد تشجعت وقالت:

«حسناً، سأقول لك. لقد أفصحتم تماماً عن مدى كراهيتكم لي. أنا لا أعرف لماذا؟، لم أفعل لك شيئاً. ويجب أن تتعلم أن تحكم على الناس كما هم في الواقع لا كما تتخيلهم أنت.»

اشتد صوتها وأصبح أقل تردداً. فهي تعرف الآن، أنه ليس لديها ما تخسره. أن أسوأ ما يستطيع أن يفعله هو أن يطلب اليها مغادرة

السيارة لتعود الى البيت سيراً على القدمين. واستدارت بالفعل ومست مقبض الباب، وكأنها تدرس تلك الفكرة. رأى غافن حركتها فقال بحدة:

«أين أنت ذاهبة؟»

«لست ذاهبة الى أي مكان. ومع ذلك فقد كنت أفكر أنه سيكون من الأفضل أن أعود الى المنزل سيراً على القدمين.»

«أترين ذلك؟ ستكتشفين خطأك بعد بضع خطوات. إلا إذا كنت تحبين أن تحترق الخفافيش شعرلك.»

«أنا لا أخاف الخفافيش إنها مجرد فتران طائرة - وهي تخشانا أكثر مما نخشاها.»

«أنت تدهشيتني. فمعظم النساء يرتعين من الخفافيش.»

«أنا لست مثل معظم النساء. ومع ذلك فانا لا أعرف لماذا تعتقد أن الشجاعة تنقصنا بالمقارنة مع الرجال. فالنساء لم يعدن مخلوقات ضعيفة. صدق أو لا تصدق أن لديهن عقولاً أيضاً.»

«حسناً، لقد شرحت وجهة نظرك جيداً.»

مد يده نحو ولاعة السكائر مرة أخرى، فقالت جين:

«هل أنت في حاجة الى السيكار ليمدك بالشجاعة؟»

أحسّت جين بأن هناك شيئاً ما يستحشها على الاسترسال، قوة لم تكن تفهمها، ولكنها كانت تزدهر بشكل ما أن تحترق ذلك السطح الخارجي، أن تثقب مناعته الحصينة هذه لترى ما وراءها. رأت من خلال الضو القاتم المنبعث من لوحة أجهزة القياس عضلات وجنتيه تنقبض وسمعت تردد أنفاسه ففرقت، أنها سجلت هدفاً ضدهم كان

حججه تافهاً.

«كلا، لست في حاجة الى السيكار. لكنه يساعد في معالجة التصرفات الصبيانية»

«إن سلوكي ليس صبيانياً»

«أنت تدهشيني. أعطيتني انطباعاً قوياً بذلك حتى الآن. والآن هل انتهيت وهل يمكننا أن نواصل رحلتنا؟»
قالت وهي تلهث:

«أنا لا أعرف لماذا توقفت أصلاً. أنت إنسان كريه»

«لا تتأدي في وقاحتك أكثر من هذا يا أنسة ريتشي، فقد نفذ صبري»
أشعل سيكاراً آخر بيظه كانت الرائحة المعطرة للسيكار الذي أشعله أخيراً بمثابة الضربة الأخيرة. فقد دفعت جين الباب واندفعت خارجة تحتسي بالنخيل وهي تشعر بالاعياء.

كانت ترتجف وتهارت قدماءها. سمعت بشكل خافت مبهم صوت ارتطام باب سيارة. فكرت أنه على وشك أن يفقد سيارته مبتعداً. كانت تشعر بقدر هائل من الاعياء خال دون اهتمامها بما يحدث، وتوقعت ان تسمع صوت المحرك يملأ المكان لكنها بدلاً من ذلك سمعت وقع أقدام مسرعة ثم جاء صوته قائلاً:

«ماذا هناك هل انت مريضة؟»

تعثرت ثم استدارت. كانت تحسن بقدميها لتسويان بينما كانت الأرض تتأرجح وترتجس وفي اللحظة التالية وكان غافن يحملها بين ذراعيه متجهاً الى السيارة.
«أنزلي، دعني، أرجوك»

دفع بها الى مقعدها وقال في حزم!

«اجلسي مكانك»

في اللحظة التالية كان الى جوارها وقد غمرها النور الداخلي للسيارة. أعطاهما منديلاً وقال:

«امسكي هذا»

مذ يده الى الدرج الأمامي للسيارة وأخرج زجاجة. فتحها ونشر بعضاً منها فوق المنديل فامتلات السيارة برائحة منعشة نفاذة، ثم قال:

«والآن، امسحي وجهك فهو سيفيدك كثيراً»

امتثلت جين ومسحت وجهها بيدين مرتعشتين قصدتها البرودة الحادة لتعيدها الى حالتها الطبيعية.
«شكراً لك»

تبدلت لهجة غافن ، فصار موضوعياً، واختفت الغضبة من نبرته. سألتها وهو يرقبها:

«لماذا لم تقولي لي إنك تشعرين بالغشيان»

نظرت الى وجهه وقد مال نحوها وقالت:

«كنت أظن أنك تعلم، فذلك كان سبب صعودي الى الطابق الأعلى للاستلقاء»

«ومن أين لي أن أعرف؟ لقد ظننت أنك صعدت لكي...»

وسكت متردداً، وأحست جين بوجهها يلتهب. فتساءلت:

«ماذا كنت تظن؟»

«ظننت أنك ذهبت لموافاة كولن»

وأضاف عندما أطلقت شهقة لا إرادية:

«إنني أعتذر. أدركت الآن مدى خطأي. ولكن لماذا لم تقولي لي أنت أو كولن»

أناحت جين برأسها وقد أفلتت منها شهقة باكية. وأحسّت بضياح وجرج وأخيراً استطاعت أن تنطق بصوت مرتعش:

«هذا ليس مهماً. أرجوك دعنا نواصل رحلتنا الآن. فأنا أشعر بتحسّن»

«لن نستانف الرحلة وأنت تبكين»

«أنا لا أبكي»

«بحق السماء حاولي أن تتوقفي عن البكاء. لقد اعتذرت لك»

مسحت وجهها بالمنديل وقالت بشرة تكاد تكون طبيعية:

«أرجوك أود لو نذهب الآن فأنا متعبة جداً»

في ذلك الضوء الخافت خيل اليها وكأنها رأت شيئاً ما في وجهه أحال جسمها إلى شعلة ملتهبة. وكأنها واقعة تحت تأثير مغناطيسي. نظرت إلى عينيه. كانتا داكنتين فيها ظلال أحدثها ذلك الضوء الذي يهدأ كبحيرة صغيرة. سمعت تردد أنفاسه. ورأت صدره يعلو ويهبط. وذلك التجويف الداكن الظلال في أسفل عنقه. بينما كان وجهه المائل داكناً مكتمل الرجولة. كانت لدى جين رغبة جارفة في أن تمسّ يدها وتغسّ شفثيه بأناملها. بل إنها أحسّت بالفعل وخزاً خفيفاً وكأن الفكرة تحوّلت إلى واقع. ضغطت على يديها محاولة استعادة حالتها الطبيعية.

قال لها في رقة:

«أرجعي رأسك إلى الخلف وحاولي أن تسترخي. لن أسير مسرعاً. امتثلت لما قاله. وأحسّت يهتو غريب. تحركت السيارة في ببطء. تزيد من

سرعتها كل لحظة وهو يقودها بعناية في طريق العودة.

أغلقت جين عينيها محاولة أن تخلد إلى النوم. على الأقل لن يكون عليها أن تتكلم معه. لكنها ستحاول التفكير برغم أنّ الأفكار تنصارع في رأسها مثيرة للقلق. فقد ظلّ وجهه الساخر يترأى لها. وأدركت بأنه لم يحبها عندما كانت تتحدث عن استيائه منها. بل كان يحرص دائماً على تغيير الموضوع. أوقف غافن سيارته أمام البوابة الخارجية لمنزل والدها وقال:

«سنقطع المرسى على الأقدام. أين مفتاحك؟»

فتحت جين حقيبتها وبدأت تبحث عن المفتاح الذي دسّه إلّا في يدها قبل أن تغادر المنزل. قطبت جبينها وبدأت تتحسّن بدقة أكثر في كل ركن وبحركة يائسة سريعة أفرغت حقيبتها. وبدأت تقلب في محتوياتها فلم تجد أي أثر للمفتاح.

«أسمحين لي؟»

قال لها ذلك وهو يأخذ الحقيبة الفارغة ويدس يده فيها متحسناً البطانة ثم قال:

«لا أثر للمفتاح. أتظنين أنه سقط من الحقيبة؟»

«نعم عندما صعدت إلى الطابق الأعلى للاستلقاء سقطت مني الحقيبة. نسيت هذا تماماً»

«هل فتحت الحقيبة أثناء سقوطها؟»

«لا أدري. كولن هو الذي التقطها»

نزل غافن من السيارة قائلاً:

«تعال، سنحاول أن ندخل في هدوء»

ركضت خلفه وهو يسير بخطوات واسعة في الممر المتعرج الموصل الى المنزل، وهي تتمنى أن يجدا نافذة مفتوحة في الطابق الأسفل. لن تنسى هذه الأمسية الثقيلة كالكابوس. حدثت نفسها بذلك في تعاسة وهي تتعثر في صندلها ذي الكعب العالي محاولة اللحاق بغافن.

المنزل يلفه الظلام وسكانه نائمون. أشار لها غافن بأن تلتزم الصمت. حاول فتح الباب الخارجي أولاً ثم بدأ يجرب النوافذ واحدة تلو الأخرى. وعندما اختفى في القناء الخلفي للمنزل انتظرت جين وهي لا تجسر حتى على الحركة. عاد بعد أقل من دقيقة. أنباها وجهه بالنتيجة ولم تكن في حاجة لأن تسأل.

دنا منها وقال:

«ليس أماننا الآن إلا أن نحاول ايقاظ إلن، ولكننا على وجه التأكيد سنوقظ والدك أيضاً، وهذا مالا أود أن أفعله. بقي أماننا اختيار واحد.»

«ما هو؟»

«أن تنامي في منزلي.»

وعندما نطق بهذه الكلمات بدأ يسير وقد تأبط ذراعها مبتعداً عن المنزل، يجذبها بعيداً، حتى يستطيع أن يتحدث بحرية أكثر. تصلبت ثم توقفت عن السير منتزعة يدها من يده وهي تصيح:

«كلا... كلا.»

«ماذا تقترحين؟»

«ألا يمكننا أن نقذف بعض الحصى على نافذة إلن؟»

«أين غرفة إلن؟»

«لا أعرف. أظنها في الناحية الخلفية من البيت.»

«إذا كنت تظنين أنني سأقف هنا لأقذف كل نافذة بالحجارة، فأنت مخبطة... وحتى في هذه الحالة ليس هناك ما يضمن أنها ستستيقظ من نومها العميق. لا تنسى أنها تذهب الى فراشها في ساعة متأخرة وتستيقظ مبكرة. تعالى.»

تأبطها مرة ثانية، ولكن بقدر أقل من الرقة هذه المرة حتى وصلا الى السيارة.

استدارت جين قائلة:

«الكاراج ليس مغلقاً ويمكنني النوم في السيارة.»

«لا تكوني حقا. اصعدي الى السيارة.»

قال كلمته الأخيرة بخسونة وهو يفتح لها باب السيارة وقد نفذ صبره. بعد دقائق كانا أمام منزله حيث كان هناك ضوء متوهج في البهو يفر الممر ارتقى غافن السلم راكضاً ووضع مفتاحه في قفل الباب مستديراً تجاه جين التي كانت لا تزال في السيارة.

«تعالى.»

امتثلت جين وهي تحسن بالحيرة. ثم تجمّدت لدى رؤية ذلك الكلب الضخم، هزذيله القصير بعنف ويقفز عالياً على غافن الذي عرفت الابتسامة طريقها الى وجهه الآن.

استدار قائلاً:

«لن يمكّك بأذى فلا تخافي.»

«أنا لا أخاف الكلاب إلا إذا وثبوا عليّ في الظلام.»

«من الأفضل أن تحببته.»

مدّت جين يدها ليتشمسها فجلس أمامها مصدراً أنبناً خافواً

وهي تربت على رأسه مبتسمة لعينيه الرقيقتين.

رفعت جين رأسها لتجد غافن واقفاً يربحها وقد علا وجهه تعبير غريب فأحسّت بالارتباك، وقد بدأ قلبها يدق بشدة. فهي لم تر وجهه على تلك الصورة قبل اليوم.

استدار غافن فجأة قائلاً:

«سأعد فتجائين من القهوة لتتناولها في المطبخ.»

لحقت به جين بعد تردد. بدأ الموقف كله يأخذ طابع الحلم، يسوده جو غير واقعي. حتى وبدأت جين تتسائل عما يمكن أن يحدث بعد ذلك.

«اجلسي. سأحضر لك قرصين من المسكن للصداع بعد دقائق. لن تحسّ بشغل في رأسك غداً إذا ما تناولتهما مع القهوة. هل انت جائعة؟»
«كلا، شكراً.»

هل ان ما يحدث الآن حقيقي. هل هي بالفعل في منزل ذلك الرجل، على وشك ان تنام في إحدى غرفه. تساءلت وهي لا تقوى على النظر اليه:

«أمل ألا توظف مديرة منزلك.»

«تحاولين أن تعرفي ما إذا كان شخص آخر غيرنا في المنزل؟»

«أعتقد أن هذا هو ما قصدت بالفعل.»

«أنا أسف أن أقول لك إننا وحدنا تماماً. فمديرة منزلي وزوجها يسكنان بيتاً صغيراً في الحديقة.»

وضع أمامها قدحاً من القهوة الدافئة ووضع جوارها اللبن والسكر قائلاً:

«لا تقلقي. فأنا لا أغازل الأطفال.»

شبهت جين وقد اشتعل وجهها. ثم تلعت قائلة:

«أنا لم أقصد.»

«نعم لقد قصدت ذلك.»

أتى برزاجة صغيرة وضعها أمامها ثم سحب مقعداً وجلس وقال:

«لا تستشيطي غضباً هكذا. فمن الطبيعي تماماً أن تسأل وتطمئني.

وقد أجبتك، والآن أرجوك ان تسلي هذا الموضوع.»

ربت على الزجاجة قائلاً:

«تناولي قرصين من هذا الدواء واشربي قهوتك. لقد تجاوزت الساعة

الثالثة صباحاً، ولست أنت وحدك المتعبة.»

كانت أفكار جين مشوشة وذهنها في حالة اضطراب وقد اختلطت

فيه الانفعالات. فتحت الزجاجة وتناولت قرصين. وبهد مرتعشة

احتست القهوة وهي تلهث قليلاً. كيف يمكنه أن يكون قاسياً الى هذه

الدرجة. أدركت كم هي في الحقيقة مجتهدة. ثم انحنت وربت على ظهر

الكلب الرابض في جوارها.

«سأصحبك الى غرفتك.»

ابتلعت جين الجرعة الأخيرة من القهوة. ثم نهضت واضطرت

للامساك بالمتنضدة بعدما شعرت بالغرفة تتأرجح. قطب غافن جبينه

متسائلاً:

«ألا زلت تشعرين بالاعياء؟»

«كلا، انني مجتهدة فقط.»

قادها الى البهو ثم ارتقى سلماً. كان كل شيء على درجة كبيرة من

الفخامة. كان الضوء ينعكس في توهج على اطارات المرايا المذهبة والنوافذ الواسعة العالية. وعندما وصلا الى الطابق الأعلى من فراع جين بخفة قائلاً:

«من هنا»

قادها الى غرفة صغيرة ذات أثاث جميل. كان غطاء السرير أبيض وقد تناثرت سجاجيد بيضاء على ارض الغرفة. أضواء النور ثم أشار الى باب في داخلها قائلاً:

«هناك تجدان حماماً مستقلاً فيه كل ما تحتاجين اليه. فستجدين أيضاً تشكيلة من ثياب النوم في الدرج الاول من منتصف الزينة ساذب لأدخل كارلو وأغلق الأبواب. اذا احتجت الى شيء ما، فما عليك إلا أن تطلبي».

مضى عائداً الى الباب ثم توقف قليلاً ناظراً الى جين التي كانت تقف قرب السرير.

«ليس للباب قفل لكنني أعدك بأن أحداً لن يزعجك»
«اشكرك»

خرج، وأغلق الباب خلفه في هدوء. أطلقت جين أمة مرتعشة. جلست في فراشها محاولة أن تستجمع شتات أفكارها. هل يمكن أن يكون هذا هو الرجل نفسه الذي رآته يفرض رأيه، متسياً في ذلك المشهد الكريه في المطار؟ وماذا سيكون رأي الخالة دورثي في كل ما حدث ويحدث؟ لم تجسر على الاستمرار في التأمل. توجهت الى الحمام. كان مزخرفاً في رقة وجمال وقد غطيت جدرانه بقرميد أزرق فاتح، كما ثبت في الحائط حامل للنباتات. غسلت جين وجهها ويديها

ونظفت أسنانها، وشعرت على الفور بتحسن كبير. عادت مرة أخرى الى غرفة النوم وأخرجت أقرب ثوب نوم ثم أرخت شعرها وأطلقت من دبابيس الشعر الخائفة وهزته بحرية وهي تطلق زفرة ارتياح رفعت يديها الى الخلف لتفتح سحاب ثوبها، ثم جذبت. لم يحدث شيء. جذبت مرة ثانية بقوة أكثر، جفلت جين بعد أن تشابكت خصلة من شعرها مع الأسنان الدقيقة للسحاب. دمدت في تهرم بعد أن تعبت يداها من المحاولات المتكررة. انتظرت لتلتقط أنفاسها، ثم بدأت محاولة جديدة دون جدوى. ودعرت. ماذا ستفعل الآن؟

حاولت جين أن تسحب الثوب الى أعلى، لكنه كان محكماً عند الوسط وبعد بضع دقائق من الكفاح الصامت المتجهم الذي كانت تخشى أن تمزق بسببه خامة الثوب الرقيقة استسلمت جين. لم يكن أمامها سوى شيء واحد هو أن تطلب مساعدة غافن وبسرعة، وقبل أن تمخضها عزميتها، فتحت الباب ونظرت نحو السلم. قد يكون في المطبخ وهذا أفضل بدلاً من أن تضطر الى الذهاب الى غرفة نومه.

هبطت جين السلم في هدوء وصارت عبر البهو حتى وصلت الى المطبخ، وبعد لحظة انتظار تستجمع فيها شجاعته دفعت الباب. لم يكن أحد في المطبخ. انتابها شعور مفاجيء بالذعر. كان كل شيء يسوده الصمت وكأن غافن و كارلو اختفيا. توجهت صوب الباب المفتوح ثم خطت الى الخارج. لم تكن تجرؤ على مناداته، ففضلت الانتظار وفي اللحظة التالية ظهر كارلو يركض بخفة وكأنه يعرب عن سعادته برؤياها.

خطت جين خارجة عن دائرة النور المنبعثة من باب المطبخ

وارهفت السمع. جاءها صوت البحر أشبه بهمس ناعم يصدر عن
كائنات مجهولة تعيش في تلك الأعماق الخضراء الباردة. ارتعشت وقد
أحست فجأة بالبرد. ثم رأت من على بعد غافق يتقدم نحوها.
وبشكل غريزي تقدمت الى الأمام.

«جين، ماذا هناك؟»

«لا أستطيع فتح سحاب ثوبي.»

«تريدني أن أفعل ذلك بدلاً منك أليس في ذلك مخاطرة؟»

«ابتعت هذا الثوب من محلك. الخطأ ليس خطأي.»

«تعالى الى الضوء.»

«أمل أن يتم الأمر هنا.»

«يا لك من طفلة حقاء.»

مد يده وأمسك بشعرها يدفعه الى الأمام. مسّت يده رقبتها.
فأحست برعشة. كان ذلك بمثابة صدمة مفاجئة. تنفست جين تنفساً
عميقاً. ثم ابتعدت قليلاً. أحست بأنامل غافن الطويلة عند رقبة
ثوبها. ثم عند الظهر. ثم بدأ قلبها يدق بعنف فخشيت أن يسمعه.
وقفت ساكنة تماماً. غير قادرة على الحركة سمعت ههيمته المتعجبة وهو
يقول:

«كيف تنتظرين مني أن أصلح لك السحاب في الظلام؟»

كانت أصابعه دافئة تمس عنقها وشعرت بشيء من الطمأنينة وهو
يقول في رقة:

«أعتقد أنني نجحت. لقد كان هناك بعض...»

توقفت فجأة. فقد حدث شيء غريب. سمعا ضربات أجنحة خشنّة

صاحبتهما صرخة حادة. في حين مر أمامها شيخ أسود. استدارت جين
وتشبّثت بعنق غافن وقد أحست بذعر مفاجيء.

«انه مجرد غفاس. وسبق لك وقلت أنك لا تخافين الحفافيش!»

ولم ترد جين. وخيم الصمت على المكان واستمر قلب جين في
الحققان بصورة زادت من إحساسها بالدوار. وغمر كيائها كله احساس
غريب لم تكن تتخيله وذلك عندما ضمها غافن اليه.
وفجأة وبملاحظة قاسية ابتعد عنها. وبصوت مرتعش قال:
«يا إلهي، أنت لا تعرفين ماذا تفعلين!»

وبينا كانت جين تقف مرتعشة من جزاء ما يصطرع داخلها من
رد فعل غير قادرة بعد على الحركة. استعادت فجأة ذكرى مؤلمة. ما
زالت تحتفظ بقسوتها. ذكرى عن خالتها. عن شيء يماثل هذا الموقف
بشكل ما فقد عادت يوماً من المدرسة وقد ملأتها السعادة. تواقّة لأن
تبلغ الحالة دورتي انها فازت بجائزة في الرسم. ألقت بذراعيها حول
خالتها. تحتضنها. لكن الحالة. دورتي دفعتها بعيداً وهي تصيح في
دهشة وقد زمّت شفيتها.

«ماذا تفعلين بحق السماء؟»

خرجت جين من الغرفة حينذاك وحيدة وقد أحست كم هي
مرفوضة بشكل تعجز عن وصفه. ها هو التاريخ بعيد نفسه. إنها تشعر
بالاحساس نفسه الآن. ملأ صدرها ذلك الألم المألوف. يتصاعد ليصل
الى حنجرتها وقد أوشك أن يخنقها. استدارت صارخة وركضت نحو
المنزل.

تسمع وقع خطواته وهو يتبعها.

«جين - انتظري.»

«دعني، ابتعد عني.»

انكمش جسدها خوفاً من التعرض لمزيد من الازلال، بينما كانت تسير متعثرة في المطبخ.
«انتظري.»

أطبقت على ذراعها يد قوية، ليستط شعرها على وجهها في قوضى
جامحة وهي تتلوى يائسة تحاول تخليص نفسها من تلك القبضة
الصلبة.

«لا تلمسني...»

هل كانت مجنونة عندما سمحت لنفسها بأن تستجيب بهذا الشكل
الى لمسة ذلك الرجل.

ظلت مشبعة بوجهها بعيداً حتى تنهزب من تلك السخرية التي
تعلم تماماً أنها سترها في عينيها. كان يجب أن تعرف ذلك. أليس هو
وخالتها على شاكلة واحدة.

لم يكن هناك جدوى. فقد كان أقوى منها كثيراً. تنهدت ثم ارتفعت
غير قادرة على الاستمرار في مقاومته:

«انتظري الى يا جين.»

رفعت رأسها، وكان قوة عظمى لا تستطيع مقاومتها دفعها الى
ذلك. كانت عيناها مليئتين بالدموع وقد ابتليت أهدابها الطويلة
الحمرية فأصبح لونها داكناً. انتظرت كلماته. أصبحت عيناها داكنتين
جداً. لم يكن فيها أي أثر للسخرية التي كانت تخشاها، لكن كان
فيها شيء آخر. قال:

«أنا آسف يا جين.»

انزعجت ذراعها من قبضته وتراجعت وهي تصرخ:

«آسف! أنا واثقة أنك آسف حقاً - لماذا لا تنفجر ضاحكاً؟»

تقدم نحوها فصاحت:

«ابتعد عني. اني أكرهك، أنسعنني! أكرهك.»

رفعت يدها الى قمها وكأنها تحاول أن تمنع نفسها من الاسترسال.
ثم هزعت خارجة من المطبخ.

٦ - المشروع

تقلب جين في الفراش أرقه بلا جدوى أن تجد في النوم ملاذاً فيرغم أنها كانت منهكة القوى فانها ظلت يفضلة متنبهة وهي مستلقية وسط الظلمة تسع دقائق ساعة حائط البهر أطل الفجر، حين خلدت الى النوم أخيراً.

استيقظت على صوت نقرة خفيفة على الباب، وصوت يقول:

«أسمحين لي بالدخول؟»

ظلت مستلقية في فراشها في صراع بين النوم واليقظة، حتى استيقظت تماماً، ووعت أين هي وكيف وماذا حدث فهبت جالسة تحرك مقبض الباب بلطف.

«جين هل استيقظت؟»

«كلا - أذهب عني.»

كان صوتها خفيضاً لا يمكن لأحد أن يسمعه، وعندما فتح الباب، استلقت بسرعة على الوسادة وجذبت الغطاء عليها. لم تكن تريده أن يراها، ولم تكن تود أن تنظر إليه وتساءلت عما إذا كانت ستتمكن من

النظر اليه مرة ثانية

«أحضرت لك القهوة.»

لزمت مكانها، متصلة، تمسك بالأغطية بقوة حول وجهها الذي أشاحت به بعيداً عن الباب.
«شكراً لك.»

كان صوتها مكتوماً، لكنه مسموع.

«إنها الحادية عشرة. هل تودين أن تأكلي شيئاً؟»

«كلا، أشكرك. اذهب واركني وحدي.»

سمعته يضع فتجان القهوة وبعد لحظة سمعت صوت إنغلاق الباب. نهضت جين وقد عازمت ألا تبقى أكثر مما ينبغي في منزل غافن. فبعد دقائق ستخرج من منزله بلا رجعة. وهكذا صار عندما وصلت الى المنزل وذهبت لتلقي والدها تمكنت من أن تتظاهر بأنها طبيعية، حياها بولع، ناظراً الى وجهها المتعب بفضول قلق، ثم قال:

«ترك لي غافن مذكرة تحت الباب الليلة الماضية أسف لأنك لم تستطعي دخول المنزل ولكني واثق برغم ذلك أنك شعرت بالراحة في منزل غافن. فهو مضيف ممتاز.»

«نعم، إلا أنني لم أستطع النوم جيداً. كان الوقت متأخراً كما أنني لاأستطيع أن أنام في فراش غريب.»
فكرت في فراشها الآمن ثم قالت:

«أعتقد أنني سأستحم ثم أحاول النوم.»

«استريحيني كما يحلو لك. سيحضر ماك لتناول الغداء معنا. هل

التفتت به أمس؟

«نعم، إنه رجل ظريف جداً.»

لم تكن تريد أن تفكر في تلك الحفلة المشؤومة، وسيكون ذلك بالقطع مستحيلاً مع مجيئها. ماك. فإنّ والدها يريد طبعاً أن يسمع كل ما دار في الحفلة. كانت تعرف أنها ستشعر بتحسن بعد النوم، كما أنها في حاجة إلى وقت تفكر فيه على انفراد.

بعد مرور ساعتين، أحست جين بالراحة والانتعاش وبأنها استعادت حالتها الطبيعية. نزلت وقد ارتدت أحد أثوابها القطنية الجديدة كان لونه أخضر صارخاً مبرزاً لون عينيها. كان شعرها مشطاً إلى الوارء في استرسال.

كان ماك يجلس مع أبيها في فناء ظليل خلف المنزل. نهض يجيئها قائلاً:

«كنت أقصّ على أبيك كيف كنت نجمة الحفلة.»

قالت جين ضاحكة:

«لا تصدّقه يا أبي لقد كان هناك عدد من السنوات.»

«نعم بالفعل، لكن لم تكن من بينهن مثيلة لك. استاءت النساء سارة جداً لرحيلك مع غافن. هل كان سبب اعيانك هو تلك الوجبة الدسمة؟»

«نعم.»

نظر إليها قائلاً وقد تذكر شيئاً:

«عشر كولن على مفتاحك ومعه دثار بني. لاشك أنه سيحضرها.»

«أوه نعم.»

الوجه الآخر للشباب ٩٥

تناول الجميع طعامهم في الفناء. جلس جون وماك يتحادثان في ودة. وقد أعطاهما ذلك وقتاً للتفكير. عادت بأفكارها إلى غافن. لم يكن في المنزل عندما نزلت إلى الطابق الأسفل. كان الباب الخلفي مفتوحاً ولم يكن هناك أثر لكارلو أيضاً. تركت له مذكرة شاكرة له ضيافته وانسلت خارجة من المنزل.

ترى هل سيحضر غافن الآن إلى منزل والدها؟

إن حضر فاعلمه نسي بالفعل ذلك الحادث التافه. فغافن من ذلك الطراز. كان يعتبرها طفلة، أنانية تسعى وراء المال، لكنها في النهاية مجرد طفلة. كم كان سلوكه مختلفاً مع سارة.

لا تزال نظرتة وهو يجيئ سارة قبل الحفلة تتراءى لجين. كان فيها شيء من العاطفة. حتى أنها بمجرد التفكير فيها الآن. أحست بأنفعال عاطفي لا تعرف كنهه. تراءى لها من جديد وجه سارة مرفوعاً وهي تتلقى تحية غافن، سارة بملاحمها الجميلة، واثقة مطمئنة. كم هو رائع أن يكون المرء هكذا، أن يكون ممتلئاً ثقة بالنفس، أن يعرف أنه محبوب.

أنزلت الملعقة من فمها وقد أحست أن حلوى القشدة المخلوطة بالخوخ ذات النكهة اللذيذة تحولّت في فمها إلى شيء جاف كريمة المذاق.

رمقها ماك قائلاً:

«أمل، ألا تكوني ملتزمة بنظام غذائي معين؟»

تمكنت جين من اقتعال ضحكة وقالت:

«كلا، لكنني لست جانعة.»

«ربما كان ذلك بسبب الطعام الكثير الليلة الماضية.»
«أناذنان لي؟»

دفعت مقعدها الى الوراء وتوجهت الى غرفتها. توقفت في طريقها كالعادة لتنظر الى لوحات والدها. تحسنت برفق لوحاتها المختارة ومست بأطراف أصابعها ثنايا الألوان الزيتية السميقة لمشهد طفل وكلبه يجذقان باشتياق في زورق صغير وسط بحر هادئ.

صعدت السلم وهي تنهد، مطرفة الباب ترتفع وتطرق مرتين بقوة. تحركت جين في هدوء أعلى الدرج، ووقفت بعيدة عن الانظار وقد سمعت مديرة المنزل تطلق بخفيها قادمة من المطبخ. خلق قلبها، وجف حلقها، فقد كانت تعلم من الطارق قبل أن تسمع صوته قائلاً: «مرحباً يا إلن. هل جون في المنزل؟»

«مرحباً ياسيد غافن. كان عليك أن توظني عندما جئت الى المنزل مع الآنسة جين.»

تشبثت أصابع جين بشكل لا ارادي بدرازين الدرج. سمعت غافن يضحك بدأ قلبها يخفق بعنف، ثلاثي صواتها تدريجياً وابتعدا في اتجاه البهو فتفتفت جين الصعداء.

إنه هنا إذًا. سيكون عليها أن تنزل وتواجهه. عليها أن تفعل ذلك في وقت من الأوقات، وربما يكون الضغط أخف في حالة وجود ماك أيضاً. ذهبت الى غرفة نومها، مشطت شعرها، ووضعت من جديد أحمر الشفاه. لم يكن في وسعها أن تفعل شيئاً لازالة ذلك اللون الداكن تحت عينيها.

ووقفت جين في غرفة الجلوس بضع دقائق بمحاولة استعادة قدر

من الاصرار الذي أحست به منذ قليل في الطابق الأعلى. كان يمكنها أن ترى الرجال الثلاثة في الفناء عن بعد. وقد حجبهم بشكل جزئي حائط يستظلون به، كان في وسعها أن تسمع أصواتهم، أن تسمع ضحكة غافن فأوشكت أن تدور على عقبيها عائدة.

خرجت جين الى الفناء وقد بدت في الظاهر هادئة ساكنة وإن كانت ترتجف من الداخل، قالت وكأنها فوجئت بوجوده: «مرحباً ياغافن. أشكرك مرة ثانية على ضيافتك.»

نهض غافن وقال:
«أهلاً بك يا جين.»

لاحظت ارتعاشه ما في وجهه ونظرة حائرة - وكأنه كان يتوقع أن يراها بصورة مختلفة... زاد ذلك من ثقة جين. توجهت نحو مقعدها وجلست. نجحت في اجتياز أولى العقبات وأصعبها. والآن يمكنها أن تواصل مسيرتها دون تردد.

دخلت إلن لترفع بقايا المائدة، وجلست جين في صمت تتمنى أن يذهب غافن. ظل يرمقها بين الحين والآخر، لكنها مع مرور الوقت اكتسبت مزيداً من الثقة في النفس، وأصبحت قادرة على مبادلة النظر في هدوء.

هذا الحوار برهة لتسمع صوت غافن يقول:

«كيف تسير مشروعك يا ماك؟»

كانت جين ترتقب وجه ماك بينما كان غافن يوجه اليه الحديث، أحست بالحيرة إزاء التعبير الذي علا وجهه. أجابه ماك وقد رفع أحد حاجبيه في اهتمام واضح:

«أتعني مدرسة الحضانة؟ على خير»

«هل عثرت على واحدة تحل محل شيرلي؟»

كانت جين ترقبها وهي تسائل نفسها، لقد كان ماك على وشك أن يقول شيئاً فلماذا قاطعه غافن. استطرد ماك قائلاً:

«ولم أعثر على أية متطوعة اذ ليس من السهل أن تعثر على متطوعات»
ابتسم فجأة لجين وهي ترقبها قائلاً:

«لولم تكن جين أتية الى هنا في عطلة لسألتها»

تجيج في اثارة حب الاستطلاع لدى جين فردت على بسمة
ببسة أعرض منها متسائلة:

«ماذا كنت ستسألني؟»

«كنت أمزح فقط. فأنا لا أحلم»

قطع حديثه ونظر الى غافن بسرعة. فاستحثته جين متوسلة:
«أرجوك استمر»

«حسناً، بدأت أعداد دار صغيرة للحضانة خارج بورت بارترريك
لأطفال عاملات مصنع التعليب. وهذا يعني أننا سنحتاج الى مزيد
من الايدي العاملة - من أمهات أطفال تتراوح أعمارهم ما بين ثلاث
وست سنوات. إنه مشروع مازال في مرحلته التجريبية. ميغان
تحضر يومين في الأسبوع. كما أن هناك أخريات. شيرلي موراي
كانت تساعدنا أيضاً لكنها ستزوج الأسبوع القادم، وهكذا
فالمشروع مهدد بالتوقف»

هز كتفيه معتذراً عن الاستطرد في الحديث قائلاً:

«أنا أكثر الكلام في هذا الموضوع فأرجو المذرة»

«ماذا يتطلب هذا العمل بالضبط؟»

«الأشياء المعتادة تعليم أولي جداً، ومراقبة الأطفال أثناء لعبهم.
أصبحوا الآن يتوقون الى المجيء بدلاً من أن يلعبوا في السوارع كما
اعتادوا. فكل أسبوع يتقدم لنا أطفال جدد. إن هذا الوضع يذكرني
بكثرة الجليد التي تتكاثر كلها استمرت في التدحرج»
«هذا يبدو رائعاً»

استرخت جين وقد انحنت الى الأمام وشبكت يديها وسقط شعرها
الناعم الى الأمام، حاجبا وجهها. نظرت الى والدها، الذي لم يكن يفوته
شيء وهو يراقب في صمت.
«أنا أرغب في المساعدة»

تلعثت قليلاً وقد رأت تعبير وجه والدها لكنه قال برفق:

«ليس لدي أية نية لمنحك إذا كنت ترغبين في الذهاب. لدي إحساس
أنك ستجدين هذا المشروع ممعاً»

ساد الصمت هنيئة، وأدركت جين أن غافن لم ينطق بكلمة
أثناء هذا الحوار. جعلها هذا أكثر تصميماً فقالت:

«ماك، أنا أود المساعدة. قبل أن أحضر هنا اجتزت امتحان القبول في
كلية تدريب الملمات. وهذا سيكون تدريباً جيداً لي»

ألقى ماك رأسه الى الوراء ضاحكاً وقال:

«أنتوين ذلك حقاً؟ أنت فتاة رائعة يا جين. متى ستأتين غداً؟»

«نعم، إذا أردت. هل يوافقك هذا يا أبي؟»

أوماً وقد علا وجهه بعض الانفعال ثم مذهب يده رابتاً على يدها وقال:

«بالطبع يا جين، أنا سعيد بك»

ملأها كلماته بهرج دافء لكنه خبا حين تساءل مالك:
«ولكن كيف ستصلين الى هناك؟»

«لم أفكر في هذا الأمر»

تحدثت غافن قائلاً:

«يمكنني أن أمر عليك في الثامنة وأنا في طريقي الى المدينة، لو كان هذا
مناسباً؟»

نظرت الى مالك أملة أن يقترح بديلاً آخر لكنه هز رأسه بانسراح
قائلاً:

«أشكرك يا غافن . وفي هذه الحالة سافلك انا في طريق العودة ومعى
جين».

لم تكن هناك وسيلة للتراجع، ليتها كانت تعرف قيادة السيارة.
«شكراً لك»

لم تستطع أن تتمالك نفسها فجاءت نيرتها مفتقرة الى الرقة، ثم
أضالت:

«سأتعلم القيادة، حتى أتمكن من أن أذهب بمفردي».

قال غافن:

«ليس الأمر بهذه السهولة يا جين».

نظرت اليه، فرأت تلك البسمة العالية قالت وعيناها تشعان
بالتحدى:

«لا أستطيع أن أعرف ذلك قبل أن أجرب، أليس كذلك؟»

هز كتفيه قائلاً:

«أنت محقة، إن سيارتي على بعد أمتار هل تودين أن تتلقي درساً

الآن؟»

سمعت جين ضحكات والدها و مالك اللاهية كما رأت تلك
البسمة الحافظة التي مست شفتي غافن، إنه يتوقع أن ترفض نظرت
اليه بعينين واسعتين قائلة:

«ألا تخشى أن أقود بك السيارة وأصدمها في أقرب شجرة؟»
«لا....»

«أنت حر، وعليك تحمل النتائج».

لم تعرف لماذا قالت هذا - وكأن الكلمات خرجت من تلقاء نفسها -
أجست بالبرودة تسري في مفاصلها عندما نهض من مكانه قائلاً:
«اسمحوا لي ، سأعود بعد دقائق».

دخل الى المنزل دون أن ينظر وراءه.

نظر مالك الى جون الذي كان يراقب جين وقال له:

«أتعرف يا جون إن ابنتك فتاة شجاعة».

«بدأت أعتقد ذلك».

«أنا أسفة يا أبي، لا أحب أن أكون فظة مع صيوفك، لكن -»

«لا تقولي شيئاً يا جين، فغافن يستمتع بمثل هذه المشاحنات، أليس
كذلك يا مالك؟»

«نعم، أعتاد أن يطيعه الجميع ولا أشك أنه سيثيره أن يلتقي شخصاً
لا يخاف أن يفصح عن رأيه بصراحة».

منعها صوت وقع أقدام قادمة من أن تحجب عليه، رفعت رأسها

لترى غافن قادماً.

نظر غافن اليها قائلاً:

«هل أنت مستعدة؟»

نهضت جين متجهة الى الخارج وهي أسفة على قبولها تحدي هذا الرجل. أي جنون هذا الذي قفلتها؟ أبعد كل الذي حدث، ترضى بالعدو اليه؟

«هل تشعرين بالتوتر؟»

سألتها في رقة وهو يفتح لها الباب الخارجي مشيراً لها بالخروج قبله.

«كلا. هل يجب أن أكون متوترة؟»

كانت في الحقيقة متوترة. ترددت وهي تهبط الدرج، بل إنها أوشكت على التعثر. قال وكأنه أحس بهذا التردد:

«لست مضطرة الى الخروج معي.»

«ألا يروقك أن أنسحب؟»

نظت جلتها هذه وهي تصر على أسنائها، وانجبت رأساً الى مقعد القيادة.

«انتظري لحظة، ستجلسين الى جوارى أولاً، لاحظيني وأنا أقود، ثم يأتي دورك. أراها كيف تدير المحرك واتطلعت السيارة. وبدلاً من أن يتجهوا الى اليسار صوب بورت باتريك اتجهوا ناحية اليمين فتساءلت جين:

«الى أين نحن ذاهبان؟»

«الى المطار، فليس هناك حركة يوم الأحد. ستجدين مساحة كافية لتعلمي القيادة.»

«مساحة بلا أشجار، أهذا ماتعنيه؟»

ضحك قائلاً وهو يرمقها بنظرة ساخرة:

«يمكنك أن تقولي ذلك. ألا يعوزك الردة أهدأ؟»
«معك كلاً.»

أنها لم تتعامل بمثل هذه الطريقة مع أحد غيره، كان فيه شيء ما يثير فيها غريزة فطرية للانتقام. لن تنتصر عليه أبداً. كانت تعرف ذلك حتى قبل أن يجيب، خفض عينيها الى يديها وقد شبكتها بتوتر على حضنها، ثم سألتها ببرود:

«هل أنت دائماً متوترة هكذا، أم أن هذا يحصل معي انا فقط؟»

حاولت أن تستعيد هدوئها ثم قالت:

«لست متوترة، أنا أحاول أن أركز تفكيري على ما تفعل لقد طلبت مني أن أرقبك.»

«أقدم لك اعتذاراً.»

كانت تكمن في صوته نغمة ضاحكة، تلك العجرفة اللاهية تثير جنونها. أنه شخص لا يحتمل، مثل الحالة دورشي، انه دائماً على حق.

«بعد بضعة أميال سأترك لك عجلة القيادة، اتفقنا؟»

خفض من سرعة السيارة. لقد وصلا الآن الى الحدود الخارجية لأرض المطار العتيق، الذي كان هادئاً ومهجوراً. أوقف غائق محرك السيارة وقال وهو يهبط من السيارة:

«الآن لتبادل أماكننا.»

زحفت جين الى مقعد القيادة وأمسكت بعجلة القيادة التي كان فيها شيء من دفء يديه.

قالت جين محدثة نفسها، إن هذا الأمر مضحك، فيها أنا على وشك

أن أعلم القيادة على يدي الرجل الذي قررت أن أتحاشاه تماماً، وهو
سيراقب الآن كل حركاتي - وعلى أن أتحمل ذلك طوال ساعة أو أكثر.
جلس الى جوارها وقد مد ذراعه على ظهر المقعد قائلاً:

«هل كل شيء على مايرام؟»

تحركت السيارة بارتجاج في بادئ الأمر ثم بسلاسة أكثر عندما
تلمست طريقها الى محرك السرعة.

«حسنًا...»

كان صوته هادئاً. وأحست جين بجسدها المتوتر يسترخي بينما
كانت تزدعن لتعليقاته. امتدت يده مرة وحركت يديها على عجلة القيادة.
كانت لمسة سريعة خفيفة لم تدم سوى لحظات.

كانت تمثل له طواعية دون أي ارتباك أو تردد. وأدركت فجأة أيضاً
أنها تشعر بالمتعة.

طلب منها أن تتوقف قائلاً:

«أحست حتى الآن.»

أحست جين فجأة وكأن قلبها يترنج ثم أعقب ذلك وهج دافئ.
كم هو أمر مضحك هذا التناقض في مشاعرها نحوه.

بعد مضي ساعة توقفاً. كانت تتصيب عرقاً وقد أحست بألم في
جسدها كله بفعل التركيز الذي بذلته طوال الساعة الماضية. جلست
ساكنة تنتظر تعليقاته.

«مستريح الآن. انزلي ومذي رجلبك، فأنت في حاجة الى فترة راحة.
نزلت. وقد أحست بمفاصلها متخشبة مرتعشة. كان يرقبها بنظرة لاهية
ثم سألها بتحفظ:

«أحتاجين الى مساعدة في السير؟»

نصبت ظهرها المتألم وأخذت تضم أصابعها وتبسطها، ثم قالت وهي
تتلقت حوطاً:

«كلا شكراً. الى أين نحن ذاهبون؟»

«سترين. تفضلي من هنا.»

تبعته وقد اختفى وراء كوخ من الأكواخ الجاهزة البناء، برميلي
الشكل ذلك الكوخ الذي كان أول شيء تراه عندما وصلت الى
سارامسكا.

دخل الى الكوخ المهجور. كان وقع أقدامها على ارض الكوخ
الاستتيليه يتردد في صوت مكتوم بينما كان يقودها صوب باب في
مؤخرة الكوخ. وجدت نفسها تتساءل:

«ما من أحد هنا، هل من المسحوق لنا أن ندخل؟»

«نعم.»

أجابها بنبرة هامسة تردد صدى نبرتها، ثم أبطأ خطواته وأمسك
بذراعها بطريقة غريبة أحست فيها بالحماية وقال:

«هناك مطبخ في المؤخرة فيه ثلاجة ملأى بالمشروبات والثلج تريدين
مشروباً بالتأكيد أليس كذلك؟»

أحست بأصابعه على ذراعها وكأنها كتلة نار. وأحست بالارتجاج
عندما سحب يده ليفتح لها الباب وقد تراجع خطوة ليفسح لها الطريق.
كانت الحجرة الصغيرة شديدة الحرارة فسال العرق من جبينه على جبهة
جين. أشار لها أن تجلس في أحد المقاعد فأرقت فيه

وضع كوبين على المنضدة وأخرج علبتين مرطبات من الثلاجة ثم

ألقى عدداً من مكعبات الثلج في الأكواب وفتح العلبتين وقال:
«ليس في السلاجة غير هذا النوع من المرطبات.»

هزّت رأسها قائلة:

«لا بأس.»

أخذ السائل الذهبي ذو الرغاوي يتساقط كالثلال على الثلج بينما
كانت جين تراقبه بنهم. أحست وكأنه ألد مشروب تذوقته في حياتها.
أخذ مقعداً لنفسه وجلس فيه وكأنه يمتطي سرجاً مسنداً ذراعيه على
ظهر المقعد. أخذ يرقب جين بنظرة تائهة ثم قال:

«أحسنت القيادة. هل أكتفيت بهذا القدر اليوم؟»

«سأترك ذلك لك.»

أجابته وهي تزحلق أصبعها على الكوب المثلج. اكتشفت أنها
لا تستطيع مبادلة النظر في ثبات، الأمر الذي كان مثار قلقها.
«أعتقد أنك أخذت كفايتك. يبدو عليك الاجهاد.»

صمت برهة ثم أضاف:

«هل لي أن اطرح عليك سؤالاً؟»

أجفلها السؤال لكنه يادر مستطرداً:

«أريد أن أسألك شيئاً يتعلق بمالك»

قالت وقد هدأت:

«ماذا؟»

«لماذا عرضت أن تساعدني في مدرسته؟»

«لأنني أردت ذلك. هذا العمل يبدو ممتعاً. ولماذا تسأل؟»

«أنت الآن في عطلة. وما من أحد كان يتوقع أن تتطوعي لهذا العمل.»

الوجه الآخر للكتاب ١٩

عادت الى ذهنها تلك الصورة. وهم جالسون في الفناء في منزل
والدها. كيف أن غافن هو الذي أثار الموضوع أولاً. وكيف كانت
النظرة التي علت وجهه ماك وتعمد غافن مقاطعته عندما كان
ماك على وشك أن يقول شيئاً. أحست جين أنها على اهبة
اكتشاف شيء ما. أطلقت زفرة عميقة ثم نظرت اليه متسائلة. فقد
كانت في حاجة لأن تعرف.
«قل لي. كنت أنت أول من أثار الموضوع. لقد فعلت ذلك بغرض ما.
ماهو؟»

ابتسم ورفع يده اليمنى في حركة استسلام قائلاً:

«أنت ذكية جداً يا جين.»

قالت بعناد وقد شددت قبضتها على الكوب:

«وجهت اليك سؤالاً.»

جاء صوته رقيقاً:

«نعم كان لي هدف كنت أود أن أعرف إذا كنت ستتطوعين أم لا.»

«لماذا؟»

«أرجعي هذا الى حبة الاستطلاع.»

قال بجملة الأخيرة محدقاً فيها وكأنه يتحذاها أن تسأله لمزيد.

«ظننت أنني لن أتطوع، أليس كذلك؟»

«تصوّرت ذلك بالفعل.»

نهضت وجذبت حقيبتها بشدة من المتضدة اجتاحتها غضب مفاجيء.

أحست أنها ستختنق إذا لم تقل فقالت:

«أنا أسفة لأنني خيّبت ظنك. والآن أريد أن أعود الى المنزل»

«هل أغضبتك؟»

قاومت بشدة حتى استطاعت أن تنالك نفسها ثم قالت:

«نعم أغضبتني. من تظن نفسك؟»

«قلت لك الحقيقة. فأنا لا أكذب. هل كنت تخين أن أنفي ذلك؟»

«بأي حق تخضع الناس لمثل هذه الاختبارات؟ أنت متعجرف بشكل

لا يطاق. لقد توقعت أن افشل في محاولة القيادة أليس كذلك؟»

«كلا لم أفكر في الحقيقة في هذا الموضوع. وأنت لن تصل إلى شيء إذا

فقدت أعصابك معي.»

أطلقت ضحكة وهي تقول:

«كلا أنت - أنت تتصور أنك تملك الجميع أن بوسعك أن تفعل ما تشاء.

حسناً، ليس الأمر كذلك معي ياسيد غرائث. فأنا لست امرأة صينية

مسنة يمكنك أن تطردها، أؤكد لك ذلك.»

كانت ترتجف وقد ملأتها رغبة جارفة في أن تضربه اتجه نحوها ثم

وقف أمامها مباشرة قائلاً:

«سيدة صينية؟ ماذا تقصدين؟»

«أخالك نسيت!... إن هذا لا يدهشني.»

استدارت لفتح الباب وتخرج من الغرفة الخائقة بعيداً عنه، قعد

يده وأغلق الباب من جديد قائلاً:

«لم تنته بعد.»

استدارت نحوه ثم قالت في حدة:

«افتح الباب، لن أمكث هنا معك دقيقة واحدة بعد الآن.»

«بل ستمكثين، إلى أن تفصحي عما تعنيه.»

«رأيتك في مطار جافر تعرض أراءك على مجموعة من الموظفين وتنتع

تلك المرأة المسكينة من أن تستقل الطائرة. إلى أين اقتادوها؟ إلى غرفة

التعذيب؟»

في تلك اللحظة انفجر ضاحكاً. ثم قالك نفسه قائلاً:

«يا إلهي هل بدا الأمر كذلك؟ هل أنت جادة حقاً؟»

اكتفت بتحريك مقبض الباب محاولة فتحه كزّد على تسأله. جذبها

وأدارها لتواجهه وقد أطبقت أصابعه على ذراعيها قائلاً بركة:

«أجيبني.»

«أنا لا أود أن أتحدث معك. ارفع يديك عني في الحال.»

«سأصحبك إلى المدرسة غداً. ذكريني ونحن هناك أن أريك شيئاً.

ومضت عيناه وأصبحنا أكثر سواداً وقدرة على التغلغل فيها واستطرد:

«وبعد هذا أنا متأكد من أنك ستتراجعين عن كلامك.»

٧ - مفاجأة في المدرسة

عندما ذهبت جين الى فراشها حال إجهادها المفرط دون استرسالها بالتفكير فبعد الشجار الذي وقع بينها وبين غافن أوصلها ورحل الى منزله بعد أن قطع الطريق في صمت مشحون بالتوتر. جاء كولن في تلك الأمسية، وحاول كولن أن يطوقها بذراعيه لكن جين صدته. لم تكن تعرف لماذا بالتحديد، لكن ربما كان ذلك ردة فعل لما حدث مع غافن.

كان ماك موجوداً أثناء زيارة كولن وقبل أن يرحل طلب من جين أن توصله الى السيارة تاركين جون في حجرة الجلوس سعيداً وقد استنفذ قواه في لعب الشطرنج مع ماك وبدأ في تحسين واضح. بادرها قائلاً:

«أبلفتك ميفان إنني أريد من جون أن يعرض نفسه على أخصائي لاجراء الفحوص والاختبارات اللازمة. إنه يصاب بنوبات شبيهة بشلل مؤقت وقد جريت معه أدوية عدة، لكنني لست متخصصاً في هذا النوع من الأمراض. ربما تنجحين في إقناعه.»

«أعدك يا ماك أن أبذل قصارى جهدي.»

ربت على كتفها وقال:

«أنا متأكد من ذلك يا فتاتي. كم من الوقت ستقضين هنا؟»
«ربما شهراً، لكنني أعتقد أنني قد أبقي لفترة أطول. فأنا أرغب في ذلك، وهو طلب مني أن أبقي.»

«أنا أمل أن تفعل ذلك يا جين. فقد تغير بالفعل. رأيت ذلك بنفسك اليوم. إنه رجل وحيد برغم اصدقائه الكثيرين. قبل مجيئك كان يعيش في فراغ. حتى لوحاته أصبحت ضعيفة، وتلك مأساة لمن له موهبته. لكنه الآن، يبدأ من جديد. عشر على ابنه - وأصبح لديه من يعيش من أجله. وكلما أسرعت بتعلم القيادة كان ذلك أفضل. لأنك عندئذ ستتمكنين من أن تأخذه في نزهات وبالمناسبة، كيف سار درس القيادة مع غارفن لم أشأ أن أسألك فور عودتك، فقد بديت شاردة الذهن قليلاً.»

«غافن يقول إنني أتقدم على نحو طيب ولكن»
أمسكت عن الحديث فبادرها قائلاً:

«لكنه متعجرف ودكتاتور.»

«لم أقل ذلك...»

«ليس هناك حاجة لأن تقولي، فيوسعي أن أرى ذلك بنفسك. أعرفه أكثر من أي شخص آخر عرفت والده أيضاً لسنوات طويلة. نحن تتوافق جيداً وأنا أحبه وأحترمه فهو مستقيم صادق بمعنى الكلمة. وهو رجل عظيم تجديته الى جوارك إذا احتميت إليه. لكنني أستطيع أن أرى أخطائه أيضاً. اعتاد منذ صغره ان يكون مطاعاً. ربما لم يكن هذا

خطأه هو. فذلك تأثير المال - ليس على من يملكه بل على من حوله. فهم يرتعدون خوفاً من إغضابه. لكن كونى كما أنت يا جين ولا تدعيه يستأسد عليك.»

«لن أدعه يفعل ذلك. وإن كان هذا من الصعب.»

أحست أنها تحب ذلك الاسكتلندي الصريح وتثق فيه فاستطردت قائلة:

«عشت مع خالتي منذ وفاة أمي. وهي تشبه غافن لقد عشت تحت سطورتها، ولكن منذ بجيني الى هنا أدركت كم كانت على خطأ. أعتقد أنني أشعر منه بسببها. أنعرف ما أعني؟»

«لست طبيباً نفسياً، لكني أعرف ما تقصدين. ستكونين يا جين ذات منفعة كبيرة لوالدك وربما لغافن أيضاً.»

بتلك الكلمات ودعها ماك ضاحكاً.

في صباح اليوم التالي كانت جين على أهبة الاستعداد. طلب منها ماك أن ترتدي شيئاً سهل غسله فارتدت شورتاً قصيراً لونه أزرق، ونزلت تنتظر غافن.

قدمت لها إلن فطوراً دسماً وهي تقول:

«ستكونين مشغولة طوال الوقت يا طفلي. كلي جيداً فستكونين في حاجة الى كل قوتك.»

سمعت جين طرقاتاً على الباب، فنهضت مسرعة محاولة الانتهاء من فطورها على عجل.

«لا تضطربي، فقي وسع السيد غافن أن ينتظر لحظة.»

قالت مديرة المنزل هذه الكلمات وهي تنطلق نحو الباب مدمدمة في

استياء.

كان غافن يقف قرب السيارة مع إلن. نظر اليها ملياً قبل أن يحجبها بفتور.

قاد السيارة عبر المرء بينما كانت إلن ترقبهما، ولوحت لهما ثم استدارت داخلة المنزل.

سأله جين وهي ترتعش:

«الى أين نحن ذاهبان؟»

«سترين بنفسك.»

جاء رده مقتضباً. وأحست جين وكأنها قد وضعت كيانها كله في حال تاهب. فمن الأفضل أن تتم هذه المواجهة بسرعة. قطع عليها أفكارها قائلاً:

«قد تخيب المدرسة آمالك. فلن تجدي هناك سوى نساء وأطفال.»

قال ذلك ثم راح ينظر اليها في امعان، فأحست بالغضب يجتاحها لكنها قالكت اعصابها وقالت:

«أنا لا أفهمك.»

«أعتقد أنك تفهميني، لن تجدي هناك رجالاً لتؤثري عليهم، ثم إن هذا الشورت الذي ترتديه لن يكون له أي مفعول.»

صرخت على أسنانها قائلة:

«هل تعتمد أن تكون فظاً؟ إذا كان الأمر كذلك فقد نجحت. لقد ارتديت هكذا لأن ماك طلب مني ان ألبس شيئاً سهل غسله... في

كل حال، أنا لست سوى طفلة وأنا واثقة أن هذه هي نظرتك نحوي فلا يهم إذا ما ارتديته.»

لم تكن متأهبة لرد فعله هذا، فقد تقلصت فجأة عضلات وجهه، وضغط بيديه على عجلة القيادة حتى بدت مفاصلها بيضاء من شدة التوتر.

ماذا قالت حتى أثارت غضبه على هذا الشكل؟

قال:

«لست في حاجة لأن تذكريني بسنك.»

ثم ساد الصمت. صمت محير مثير للقلق. لقد نجح ردها العفوي في أن يسكته.

اخترقت السيارة ميناء بورت باتريك، كانت الشوارع ملأى بصخب الحياة وفوج الألوان، بينما سيطر على السيارة جو من التوتر جعل جين تتمنى أن تكون خارجها وسط هؤلاء المارة.

تغير طابع الجزيرة بعد أن خلفا وراءهما المدينة. فقد أصبح أكثر غرابة. بعد أن دنت الجبال من مرأى البصر، وظهرت الحدود والنباتات الاستوائية المورقة بكثرة حتى قاربت أن تتعدى الطريق نفسه. حبست جين أنفاسها أمام هذا الجمال البري ففي بعض الأوقات قاربت الأشجار من الالتقاء عبر الطريق فيدا وكأنهما يسيران خلال نفق أخضر عال، بينما كانت الشمس تشرق بين حين وآخر فروع الشجر الكثيفة بوهج أصفر لامع كالناس. أبطأ غافن من سرعة السيارة، فرأت من خلال الأشجار عدداً من الأبنية المنخفضة المستطيلة - سقفها من الحديد المضلع، وقد طلي باللون الأبيض ليعكس الحرارة. كانت سيارة ماك توقف في ظل شجرة فأوقف غافن سيارته وراءها قائلاً:

«ها قد وصلنا.»

كانت جين تتساءل ماذا يمكن أن يريها هنا في المدرسة؟ بادرها قائلاً وكأنه قرأ أفكارها:

«أريد أولاً أن أريك شيئاً.»

سار مبتعداً تاركاً جين تتبعه وسط شجيرات كثيفة تعلوها ورود ناعمة ناصعة البياض ذات رائحة قوية. سارت جين خلفه وقد زمت شفتيها في تحد. فجأة اقتربا من أرض خالية فوصل إلى سمعها صوت خرير المياه الذي أكسب تلك البيوت الصغيرة المتراصة في شكل شبه دائري جواً من السحر. اصطفت بطول الجدران شجيرات أزهار زاهية الألوان ومروج صغيرة رويت بعناية للمحافظة على خضرتها الناضرة بينما طلي كل منزل بلون زاه، وفتحت النوافذ على مصراعها لادخال أكبر قدر من الهواء.

توقف غافن واستدار ناحيتها متسائلاً دون أن ينم تعبير وجهه عن شيء:

«هل أنت مستعدة؟»

«مستعدة لماذا؟»

رفع حاجبه في سخرية قائلاً:

«هل أنت مستعدة لتعربي ما أسفرت عنه زيارة المرأة الصينية لغرفة التعذيب؟»

ودون أن ينظر ورائه مرة ثانية توجه نحو أقرب باب وطرقه.

خلق قلب جين بقوة عندما فتح الباب، فقد تقدمت مجموعة من الأطفال واثنين أو ثلاثة من الشباب الصينيين نحو غافن وأحاطوا

به بينما رأت وجهاً مألوفاً يقف في مدخل الباب وقد تصاعدت جلبة من الأصوات جميعها تحيي غافن. رفعت المرأة العجوز يدها بحركة تحية وقد علت وجهها ابتسامة عريضة.

تقدمت المرأة الى الأمام ببطء ثم انحنت وصافحته. استدار غافن نحو جين كانت نظرتة ملائى بالتحدي. ثم بدأ يتحدث برقة الى المرأة التي أومأت ثم أدارت عيني برأقتين نحو جين وقد اتسعت ابتسامتها لتكشف عن أسنانها الذهبية.

لم تكن تتحدث الانكليزية فتولت حفيدتها ترجمة ردها على تساؤلات غافن قائلة:

«إن جدتي ترغب في أن تشكر لك اهتمامك، فلولا وجود السيد غرانت في المطار لما استطاعت المجيء إلى هنا».

بلغت جين ريقها محاولة الابتسام وهي متنبهة تماماً الى نظرة غافن الساخرة المثبتة عليها حين مضت الفتاة تقول:

«نعم. جاءت جدتي وحدها من سايجون - وفقدت نفودها وجواز سفرها. كان موظفو المطار على وشك استدعاء البوليس، لكن غرانت طلب منهم العناية بها، وضمن لهم أن يقوم هو بالتحقيق من صدق روايتها عندما يصل الى سارامانكا ثم يعود الى الاتصال بهم تليفونياً، على أن يقوموا في هذه الأثناء بتقديم الطعام لها على نفقته، إذ إنها كانت تشعر بجوع شديد بعد أن أمضت ساعات انتظار طويلة في المطار.

تصاعدت الأصوات من جديد، وبدأ غافن وكأنه يرفض دعوتهم له بالدخول، كانت يدها ترتفعان في حركات معبرة عن الاعتذار وهو يتجهز الى الورا، تصحبه عاصفة من كلمات الوداع. تأبط غافن

ذراع جين ليعودا أدراجها وسط الشجيرات الكثيفة. وفي منتصف الطريق، توقفت قائلاً:

«هل أنت مقتنعة الآن بأنني لست كريهاً؟»

استدارت جين نحوه قائلة:

«لقد طوت بما فيه كفايتك. نعم، ماذا تريد مني، هل تريد أن أركع امامك ألم يكن في وسعك أن تكتفي بأن تقول الحقيقة؟» قال لها بلطف:

«هل كنت ستصدقيني؟ كنت أريدك أن ترى بنفسك حتى تعرفي الحقيقة، وتدركي أن الأشياء ليست بالضرورة كما تبدو».

«ربما كان عليك أيضاً أن تحاول تذكر ذلك».

«لقد قلت شيئاً كهذا من قبل، ماذا تعنين؟»

ردت في غضب قائلة:

«ربما. لكنني أريد سماعه منك».

«إذاً عليك أن تنتظر حتى أكون مستعدة لذلك. جئت لأعزل وأنا واثقة من أن مالك ينتظرني».

راح غافن يحدق في وجهها. شعرت فجأة بأنها لم تعد تخافه. كان إحساساً غاية في الغرابة، أحست وكأنها تعيش تجربة جديدة، مع هذا الرجل المتسلط وعرفت أنه هو أيضاً أحسن بالشيء نفسه، ذلك الشيء الذي لا يمكن وصفه.

استدارت جين وواصلت المسير، كانت تعرف أن شيئاً قد تغير في تلك اللحظة.

رأت جين المدرسة، كان الأطفال قد وصلوا بالفعل فصحبها

ماك اليهم. بناء المدرسة مماثل للأبنية الأخرى التي رأتها منذ قليل:
منخفضة مستطيلة خشبية ذات سقف حديدي مصلع قابلتها سيدة
لطيفة وقد تبعها أطفال يرتدون زياً موحداً. كانت بشرتهم بلون
العسل، عيونهم سوداء، وقد بدوا جميعاً ممتلئين سعادة.

بادرت السيدة قائلة قبل أن يكون لدى ماك فرصة لتقديعها:
«اسمي آن موراي، سعدت بلقائك».

صافحتها جين ضاحكة وهي تقول:
«أسفة إنتي لا أعرف شيئاً عن مدارس الحضانة».
«لكنك ستتعلمين أنا واثقة من ذلك».

نظرت السيدة موراي الى ما ترتديه جين بنظرة استحسان
قائلة وهي تتنهد:
«كنت أود أن يكون في وسعي ارتداء الثورت لكن زوجي يقول إنه
ليس مناسباً لسنّي».

قال ماك مداعباً:
«إنه يخشى أن يلتف الرجال حولك. إسحائي بالرحيل فلدي عملية
جراحية في المدينة، سأعود في وقت آخر».
تلفتت السيدة موراي حولها قائلة:
«تعالى معي يا أنسة نتجول في أرجاء المدرسة».

تضاحك الأطفال في مرح، وركض بعضهم الى الأراجيع بينما وقف
البعض الآخر يراقب في صمت. تقدمت نحو جين طفلة صغيرة وقد
وضعت اصبعها بشبات في فمها. ثم أخرجت اصبعها من فمها رافعة
ذراعيها الى أعلى نحو جين وهي تقول:

«من فضلك إحليني».

انحنت جين ورفعت الطفلة الصغيرة بين ذراعيها فابتسمت
السيدة موراي قائلة:

«هذه هي ميلاني ستطلب منك أن تحملها طوال اليوم، فإذا لم
تكوني حازمة معها فإن ذراعيك ستتعبان».

طوّقت ميلاني عنق جين ضاحكة بيد متسخة قليلاً، فعرفت
جين ماذا كان يعني ماك عندما طلب منها ارتداء ملابس يسهل
غسلها، وقالت الطفلة:

«أنا أحبك. أنت صديقتي».

في فترة الظهر أحضر رجلان أوعية طعام ضخمة من مقصف
العمال، وجلس الأطفال الى الموائد يأكلون. وتناولت آن و جين
وجبتها مع الأطفال.

وبعد ذلك خلد الأطفال الى الراحة وأطلقت آن زفرة ارتياح بعد
أن وضعت آخر طفل في سريره ونظرت الى الأسرة الصغيرة المصطفة
وقد رقد في كل منها وجه صغير. نظرت الى جين قائلة:

«أمامنا ساعة للراحة، تعالي، لنتناول فهوة مثلجة وندخن سيكارة تحت
تلك الشجرة. فنحن في حاجة الى قيلولة قصيرة».

جلست آن و جين تثرثران في تراخ تحت ظل شجرة ملثوية
ضخمة كانت أوراقها تصدر حفيفاً وسط نسمة خفيفة. سمعت جين
صوت سيارة تتوقف بعيدة وتساءلت إذا كان ماك قد عاد ثم
نسيت الأمر عندما بادرتها آن قائلة:

«يجب أن تحضري حفلة الزفاف يوم السبت».

«هذا كرم منك، أشكرك. هل سيحضر والذي الحفلة؟»

هزت أن كتفها قائلة :

«لا نعرف بعد، ماك سيخبرنا بذلك. ولكن حتى لو لم يحضر، يجب أن تأتي أنت. غافن يمكن أن يحضرك، أنا واثقة من ذلك.»

«شكراً لك سأحدث ميفان بذلك حين أراها.»

مر الوقت بسرعة وبدأ الأطفال يستيقظون بادرتهما جين متسائلة:

«هل يعمل آباء الأطفال جميعاً في مصنع التعليب؟»

«نعم، أو في مجمعات تخزين لباب جوز الهند. فنحن لدينا مشروع تصدير لباب جوز الهند وليقه المستخرج من الفشرة الخارجية وهو يستخدم في صناعة الحصر وأشباه أخرى. وعندما يتسع المشروع سنعتمد إلى تزويد المدرسة بهيئة من المدرسين المتفرسين. فالمدرسة ما زالت في مرحلة تجريبية. ولذلك فغافن لا يملك إلا أن يقبل مساعدة عدد منا كلها أمكننا ذلك - ونحن نسعد بأن نخدمه. فهو بذل الكثير من أجل سارامنكا وكل فرد فيها.»

«تقصدين ماك. إنه...»

قاطعتها أن وهي تضحك في دهشة:

«كلا لا أقصد ماك بل غافن. فإن كل هذا ملك له وحده.»

لم تستطع جين أن تستوعب ما قالته أن بعدة دقائق حيث

وقفت محمالة في ذهول، ثم قالت في بطة:

«لست أفهم. تصورت أن هذه المدرسة ملك لماك.»

«نعم. يمكنك أن تفولي ذلك. فيها فكري في المشروع معاً. ألم يخبرك أحد

بذلك؟ إن المصنع ملك لغافن كما كان ملكاً لوالده قبله وماك

يقدم له النصح قياً يتعلق بالشؤون الصحية والتأمينات وشروط العمل. تمكنا من رفع مستوى المعيشة في الجزيرة بشكل ملحوظ مما مكن الأمهات أن يعملن هنا وهن واثقات من أن أطفالهن في أمان.»

لم تكن جين تصغي إليها تماماً. فقد عادت إلى ذلك الحوار الذي دار في بيت والدها. وعرفت الآن لماذا قاطع غافن ماك في تلك اللحظة. وفيما بعد، عندما كانا في المطار، كان في وسعه أن يقول لها الحقيقة لكنه لم يفعل.

دخلنا إلى المدرسة وبدأنا نوقظان من بقي نائماً من الأطفال. ففرت ميلاني وأتجهت نحو جين ثم دست يدها الصغيرة في يد جين.

ابتسمت أن قائلة:

«أصبحتنا صديقتين.»

«إنها فتاة طيبة.»

«سأدعك تكتشفين ذلك بنفسك.»

جلست جين تلعب مع الأطفال في ملعبهم، ثم تذكرت كلمات أن تلك فتلفتت حولها لتتأكد من أن كل شيء على ما يرام. نهضت بسرعة وقد استدارت صوب المدرسة منادية:

«ميلاني؟ هل هي عندك؟»

ظهرت أن في مدخل الباب قائلة:

«كلا، هل حدث هذا مرة ثانية؟ متى رأيتهما لآخر مرة؟»

«منذ دقيقة واحدة، كانت تلعب في حفرة الرمال.»

«جربى هذا الطريق بينما أبحث عنها وراء المدرسة.»

ركضت جين بسرعة نحو الطريق وسط شجيرات متشابكة وقد

غمرها دعر مفاجىء. اكتسى المكان بالعشب - فكان يمكن للفتاة الصغيرة أن تكون في أي اتجاه. دارت حول نفسها ثم هوت وقد أحتت بالدوار بعد أن تعثرت قدمها في نبات متسلق.

نهضت متجاهلة الألم في كاحلها وركضت وهي تنادي صارخة:

«ميلاني، ميلاني أين أنت؟»

توقفت فجأة بعدما اقتربت من الساحة الأخرى المؤدية الى المصنع التي كانت تقف فيها سيارة ماك. لكنها لم تر سيارة ماك. بل كانت سيارة غافن وقربها رأت وجهين مألوفين. استوعبت جين ذلك المنظر في ارتياح مفاجىء. لم تعرف في تلك اللحظة أن منظر هذين الوجهين سينطبع في ذاكرتها الى الأبد.

كان غافن منحنيًا ليحمل ميلاني. رأت ذلك الرجل الطويل القامة وهو يوزجج الطفلة الصغيرة الممتلئة. كانت تسمع صرخاتها الضاحكة كما سمعته يقول:

«أين أنت ذاهبة يا ميلاني؟»

رأى جين فجأة، فتوقفت. تقدمت نحوها وهي تجفل من الألم كليًا وضعت قدمها اليسرى على الأرض. تقلص وجه غافن عندما خفض نظره الى قدمها فبادرها متسائلًا:

«هل كنت تركضين؟»

«نعم، أشكرك لأنك أوقفت ميلاني. دعني أعيدها الى المدرسة.»
«من الأفضل أن أفعل أنا ذلك. فأنت لا تبدين على ما يرام. هل تؤلمك

قدمك؟»

«كلا.»

كانت تكذب. واستدارت عائدة. كل خطوة كانت عذاباً لكنها كانت عازمة على ألا تجعله يرى ذلك.

ظهرت أن ورأت جين فحملت فيها قائلة:
«ماذا جرى لك؟»

قال غافن:

«أعتقد أنها في حاجة الى بعض الاسعافات الأولية.»

انزل ميلاني من بين ذراعيه قائلاً:

«اذهبي أيتها الفتاة الشقية، لا تهربي مرة ثانية والا ضربتك.»

أخذت ميلاني تقفز بعيداً وهي تقهقه، ثم ركضت لتنضم الى رفاقها.

تقدمت أن نحو جين أخذاً بذراعها وهي تقول:

«أجلسي في الداخل. سأذهب لأحضر ماء مثليجاً. لونتك شاحب.»

امتثلت جين في صمت. فلم يكن أمامها خيار برغم احساسها بوجود غافن، فهي تعرف انه ليس في وسعها أن تظل واقفة كيلا تتعرض مرة أخرى للفتيان.

سمعت أن تقول شيئاً لغافن بصوت مرتفع، لكنها لم تعي الكلمات. ثم وجدت نفسها جالسة في أحد مقاعد الأطفال الصغيرة. قالت أن:

«تؤرم كاحلك كالبالون، يجب أن نحضر ماك ليرى قدميك. ألا تظن ذلك يا غافن؟»

ركع أمام جين ثم رفع رأسه مزيداً كلام أن:

«نعم. لكن أماننا بعض الوقت قبل أن يحضر. سأضمد الجرح أولاً.

أين صندوق الاسعافات الأولية يا أن.

اختفت أن في حجرة مخزن صغيرة فقال غافن بركة:
«لماذا أنكرت أن كاحلك تؤلك عندما سألتك؟»

«أنا لا أحب استشارة شفقة أحد.»

ضغط على شفتيه قائلاً:

«لم أقل أنك كذلك ولكن كم أغنى لو لم تكوني...»

لم تعرف قط ماذا كان ينوي أن يقول إذ في تلك اللحظة دخلت أن
حاملة الاسعافات الأولية.

كانت بدا غافن رشيقتين سريعتين وهو يضمد كاحل جين
بمهارة. اختلطت مشاعر جين بين احساس بالراحة بعدما خفف
الضهاد البارد آلامها وبين الخوف من ذلك الاحساس بالاضطراب
الذي أحدثته لمسة يده.

قالت بعد أن انتهت من تضميد قدمها:

«شكراً.»

«هذا من دواعي سروري. من الأفضل أن أصحبك إلى المنزل، أليس
كذلك؟»

«كلاً شكراً. أفضل أن أبقى مع الأطفال اقص عليهم حكاية.»

«كما تشائين يا جين. لم تبق سوى ساعة واحدة فقط على موعد
انصراف الأطفال.»

رفعت أن يدها الى فمها قائلة:

«يا إلهي، يجب أن أعطي الأطفال الحليب.»

«سأولى الأمر عنك.»

عاد غافن و أن بأبريق من القهوة المشلجة ووعاء كبير من
الحليب. وبعد أن قدما الحليب للأطفال الذين اصطفوا استجابة
لتعليقات غافن، جلست جين و أن وتناولتا مشروبهما المثلج.
أما غافن فقد ظل في الخارج.
هست أن قائلة:

«إنه رائع مع الأطفال، أتعرفين ذلك. إنهم يفعلون أي شيء من أجله.»
لم يكن في وسع جين إلا أن توافق على ذلك وهي ترتب الأطفال
يتناولون غافن في هدوء اكوابهم الفارغة:
«إنهم يطيعونه. لأنه يرعاهم.»

ندمت على ما تفوهت به في الحال. وضحكت أن قائلة:

«لا أعتقد ذلك. فهو عندما يجيء الى هنا يختلف تماماً عما هو عليه في
عمله. هنا يصبح على سجيته أعتقد أنه واحد من هؤلاء الرجال الذين لا
يخشون أن يظهرُوا بعض الرقة من حين الى آخر. فمعظم الرجال.
يعتقدون أن هذا يتنافى مع رجولتهم. أما غافن فلا يهتم برأي الناس
ليه.»

رشت جين قهقهتها ببطء لم تكن تريد أن تعرف شيئاً عن وجهه
الأخر. لكنها برغم ذلك وجدت نفسها تراقبه وقد انحنى يحدث أحد
الأطفال. منكب على ما يقوله الآخر دون أن تلتك العجرفة المعتادة في
وجهه.

لم تكن هذه هي المرة الأولى التي تساءلت فيها جين عما إذا
كانت سارة تأتي الى المدرسة. لم تجد الوقت مناسباً لسؤال. فقد كان
غافن أتياً يحمل مجموعة من الاكواب الفارغة الى حوض الغسيل.

بأمر أن قائلاً:

«سأقيم سوراً حول تلك المساحة من الأرض، حتى لا يتكرر حادث ميلاني».

«إنها فكرة جيدة وستسهل مهمتنا».

«سأعمل على تنفيذها غداً».

نظر إلى ساعته وقال:

«أنا ذاهب الآن لأرتب بعض الأمور المتعلقة بهذا الموضوع».

قالت أن وهي تهز رأسها:

«هذا هو غافن، لا يكاد يقول شيئاً إلا ويفعله، من المؤسف أنني لن أكون هنا غداً لأراقبه وهو ينفذه».

عاد غافن بعد قليل ومعه اثنان من سكان الجزيرة يحملان بحارف ومطارق. رأته جين و أن يشير إلى عدد من المواقع ويخطط بالعصا في الأرض الرملية وسط انبهار الأطفال. ثم تقدم نحوها قائلاً: «انصلت تليفونياً بالمدينة من مكتب المصنع، ستحضر سيارة نقل بعد نصف ساعة وفيها كل ما نحتاجه. وفي هذه الأثناء سنبدأ حفر الأساس. فإذا سمحاً، أبعدا الأطفال عن طريقنا».

وبحركة رشيقة، خلع قميصه وألقى بها على أحد المقاعد. كانت بنيتة قوية فكتفاه كبيرتان بعضلات قوية، ومصدره عريض مغطى بشعر أسود كثيف. برقت الفولاذة الفضية المدلاة من عنقه وهو يتحرك متجهاً نحو الخارج. غصت جين بصرها وثبتته بسرعة بين يديها. ثم شعرت بارتياح عندما قالت أن:

«ياله من رجل قوي البنية. لا غرابة في أن كل نساء الجزيرة يتمتعن

صداقته».

قالت جين وهي تحاول الضحك:

«حقاً لكنه مرتبط أليس كذلك؟»

«تقصدين سارة؟ أعتقد أنها تأتي في المقدمة، إنها تسعى إلى ذلك بلا شك، لكن صديقنا غافن طائر مراوغ، ألم تلتقي كاي بعد؟»

«كلا، هل كانت في حفلة سارة الأسبوع الماضي؟»

«كلا! فهما لا تتبادلان الحديث لأسباب واضحة بالطبع كاي ستحضر حفلة زفاف شيرلي ويمكنك أن تلتقيها هناك».

نظرت جين إلى حيث بدأ غافن عملية الحفر فقد كان ذلك أمراً مسلماً بالفعل، كان يعمل بحركات قليلة سريعة تكشف عن قمرته.

تساءلت جين قائلة:

«لماذا يفعل هذا بنفسه أتصور أنه يستمتع بمثل هذه التمرينات، فقد كان رياضياً قديماً قبل أن يموت والده ويتولى هو كل مسؤولياته. أعتقد أنه يريد أن يحتفظ بمظهره كما أن العمال يتقانون في عملهم متى رأوا رئيسهم يشاركهم فيه».

«قال لي ماك أن غافن يعرف كيف يقاتل، ولكن لم يقل لي كيف كان ذلك؟»

«تلك القصة انتشرت في الجزيرة كلها في ذلك الحين، بعدما تولى تبعة المصانع اثر وفاة والده مباشرة. كانت هناك بعض المشاكل بين العمال ثم تطورت إلى عراك، ووصل ماك و غافن عندما كانت المعركة في أوجها. ألقى غافن نظرة خاطفة، ثم وقع اختياره على زعيمين

المجموعتين المتصارعتين، خاض في الكتل المتصارعة وسط اللكمات المتطابرة وفي لحظات أفقدها الوعي، ففترق الجمع تلقائياً.

كانت عينا جين مشبتين الآن على غافن الذي لم يكن يدري طبعاً أن الحديث يتناوله. أحست جين، بأنها بدأت تعجب بالفعل بشخصية غافن كل يوم تسمع شيئاً جديداً عنه يجعلها تكتشف مزاياه ومدى ما يتمتع به من نفوذ في الجزيرة، نهضت جين، وقد أحست بالقلق فجأة، خطت ببطء وحرص صوب الباب، توقفت خجلة على وشك أن تعود أدراجها بعد أن أحست بعيني غافن مشبتين عليها. في تلك اللحظة سمعت رنين الجرس يدعو الاسهات إلى تسلم اولادهن.

كان غافن يغرز الجاروف في الأرض الصلبة ويتقدم نحوها قائلاً:

«انتهى يوم عملك، هل أنت سعيدة؟»

نظرت إليه جين بحدة قائلة:

«لقد استمتعت به.»

«هل ستأتين مرة ثانية؟»

«نعم، لماذا لم تقل لي أن هذا المشروع ملكك؟»

«هل عرفت؟»

«نعم.»

حاولت الوقوف، فامتدت يده فجأة تمسك بذراعها، أحست بالاضطراب فابتعدت قليلاً وهي ما زالت تنظر إليه.

«تصوّرت أنك لن تقدّمي مساعدتك إذا عرفت ذلك.»

ثم أضاف في رقة:

«هل كنت ستقدمين مساعدتك؟»

«لا أعرف.»

نكتت لولم تكن أجابت بهذه السرعة.

«ألم أقل لك إذا...»

وفجأة توقف عن الكلام ثم قال:

«سمعت شيئاً، إما أنه الاتوبيس أو أن الأشياء التي طلبتها للسور

وصلت، اسمحي لي.»

سار بخطوات واسعة نحو الطريق ثم جاءت أن وقالت:

«إلى أين ذهاب؟»

«ليرى من الذي وصل»

ظهر ماك وسط حشد من النساء، بثياب زاهية الألوان يثرثرن

ويلوحن لأطفالهن. ثم ذهب الجميع ليسود الصمت.

تلقت أن حوها قائلة:

«انقضى يوم آخر يا ماك، أذت جين دورها جيداً.»

«كنت أعرف أنها ستفعل ذلك.»

نظر ماك إلى قدم جين وقال:

«ماذا كنت تفعلين يا سيدتي الصغيرة؟»

«كنت أطارد ميلاني ثم زلت قدمي.»

«يبدو أنها صندت جيداً. سأراها عندما نصل الى المنزل. هل أنت

مستعدة للذهاب يا جين؟»

ابتعدت جين و ماك عن المدرسة وريداً. لم يكن هناك أثر

لغافن . وعندما اقتربا من سيارة ماك ، كان يقف يتحدث مع سائق عربة نقل وعندما رآها تقدم نحوها. نظر الى جين قائلاً في هدوء:

«شكراً على مجيئك، أنا أقدر مساعدتك.»

كانت كلماته هذه المرة لها وحدها، وكأن ماك غير موجود. لمحت جين شيئاً في عينيه. شعرت بالدفع والاطمئنان. تبادلوا كلمات الوداع ثم استقلت جين سيارة ماك. أمسك غافن بباب السيارة كي تجلس ثم أخذ يتحدث مع ماك في الجانب الآخر من السيارة. كانت تسمع صوتها لكنها لم تفهم شيئاً. سيطرت على تخيلها النظرة الحانية في عيني غافن. تشبثت جين بحقيبة يدها وأحسّت برغبة في البكاء من دون أن تعرف لماذا.

٨ - التحول

مر اليومان التاليان بطيئين. فقدت جين شهيتها للأكل فأرجعت ذلك الى حرارة الجو والألم الذي تحسّه في كاحلها.

اقترب موعد حفلة الزفاف. وفي أمسية يوم الأربعاء كانت تجلس مع أبيها في طرف الحديقة، على مرأى من البحر بعدما صبّ نسيم منعش رطب الجو. كانا ينتظران ميغان و كولن على العشاء. قررت جين أن تكون بالغة الرقة مع كولن. فهي مجده لطيفاً كما أنها تعرف أنه متعلق بها. هذا الشعور كان كافياً لاسعادها لو أن عاطفتها لم تتبدل. أما الآن، وليسب لا تعرفه قاماً فهي تتمنى لو لم يكن متعلقاً بها. لم يكن في وسعها أن تفهم مشاعرها أو تحللها. تساءلت لماذا لم يأت غافن لرؤية والدها منذ الأحد الماضي. هي لا تيالي بالأمر، لكن كان عليه أن يحضر ليرى ماذا جرى لكاحلها. غير أنه لم يحضر وقد ظلّ هذا الحاضر عالقاً بذهنها. بادرت أبيها قائلة:

«هل سنذهب الى حفلة زفاف شيرلي يا أبي؟»

«نعم، الآن وأنت معي، أعتقد أنني سأذهب. سنسأل ميغان اذا كان

ممكناً أن نذهب معها، أعتقد أنها وصلت مع كولن.

أقبلت ميغان ومعهما كولن وتبادل الجميع تحية زدية. جلس

كولن القرفصاء قرب مقعد جين وبادرها قائلاً:

«كيف حال كاحلك. هل تحسن الآن؟»

«تحسنت كثيراً. كنا نتحدث الآن عن حفلة زفاف شيرلي.»

«هل ستذهبان؟»

تدخل والدها قائلاً:

«نحن نأمل أن نذهب، كما نأمل أيضاً أن يتطوع أصدقاء طبيون بنقلنا

الى هناك.»

ردت ميغان بسرور:

«سنكون سعيدين بذلك. ماذا سترتدين يا جين؟»

«لم أفكر بعد.»

قاطعها أبوها:

«هذه ليست مشكلة، يمكنك أن تشتري ثوباً.»

بادرته جين قائلة:

«لكني لا أستطيع.»

قاطعتها ميغان:

«أعرف ذلك، لنعد لك ثوباً بالشرائط الحسرية المعروفة في

سارامانكا.»

احتجت جين قائلة:

«لا يمكنك ذلك، فهذا يستغرق وقتاً طويلاً.»

«اليوم الأربعاء سنشتري غداً كل ما يلزمنا وسيكون الثوب جاهزاً يوم

الجمعة.»

نظر إليها والد جين بود قائلاً:

«إن حياكة ميغان معروفة للجميع، أنا أضمن ذلك.»

«هذا كرم منك يا ميغان لكن هل أنت واثقة؟»

«كل الثقة. صباح غد سأصحبك لشترتي كل ما يلزمنا من محل

غافن.»

«من يتحدث عني؟»

التفت الجميع ليجدوا غافن ومعه كلبه.

فجأة شعرت جين بأنها تريد الفرار الى مكان ما، الى أي مكان

بعيداً عنه.

بدأت ميغان تعيد سرد ما كانوا يتحدثون عنه، وأحسّت جين

بانسحاب كولن الصامت من جوارها بينما أرقى كارلو باسترخاء

مكانه دافعاً أنفها للرطب في يد جين. ربت على رأسه بينما كانت

تصغي الى غافن:

«جئت أطلب خدمة من جين. ولكني لا أستطيع أن اطلب ذلك

الآن.»

«ماذا تريد؟»

جاء صوتها عادياً، أو هكذا بدا، في حين كانت ترتعد من الداخل.

«إن أن تعمل بمفردها غداً في المدرسة وهي تسأل ما اذا كنت قادرة

على مساعدتها.»

إذاً هذا هو سبب محبته كان يجب أن تعرف نظرت الى ميغان في

حيرة فبادرتها الأخرى قائلة وهي تضحك:

«الأمر متروك لك يا عزيزتي. يمكنني أن أشتري أنا كل ما نحتاج إليه إذا رغبت في ذلك.»

تدخل غافن قائلاً:

«استطيع أن أصحب جين إلى المحل في الثامنة صباحاً لتختار ما تريده. هذا إذا كنت ستذهبن إلى المدرسة يا جين.»
«أنا مستعدة للمساعدة.»

فكرت جين وهي في فراشها بأن غافن يصل دائماً إلى أغراضه. حدث الأمر بشكل طبيعي لكنها الآن أدركت كيف أنه يحقق أهدافه بسهولة. فالجميع يوافقون بحماسة على مخططاته. أخذت تتقلب في فراشها بقلق وقد سيطرت عليها فكرة واحدة وهي أنه سيصحبها إلى محله ثم إلى المدرسة. وقد وافقت على ذلك صاغرة. كيف حدث هذا وهي التي قررت أن تتجنبه.

وقبل أن تستلم للنوم كان وجه غافن هو آخر رؤية تفرس نفسها عليها. وجه غافن بالصورة التي بدا عليها عندما كان منحنيًا على وشك التقاط ميلاني بين ذراعيه. فقد بدا مختلفاً تماماً.

في الصباح، عندما كانت ترتدي ثيابها وتشط شعرها أدركت أن مقامها في سارامسكا لم يدم أكثر من أسبوع. لقد بدا ذلك مستحيلًا. فهي تحس أنها عاشت هنا منذ زمن بعيد وكأن الجزيرة باتت جزءاً لا يتجزأ منها. قريباً سيكون عليها أن تختار. وهي ليست واثقة بعد ماذا سيكون اختيارها. فهي تود البقاء مع والدها، لكنها لا تزال مترددة. فهناك احساس غريزي دفين بحب البقاء يؤكد لها ضرورة الرحيل. قبل أن يفوت الأولان. لكن أوان ماذا؟ انها لا تدري ولا يمكنها

أن تتكهن به؟

استيقظ والدها مبكراً وقد بدا وجهه مسترخياً مليئاً بحيوية لم تشهدها من قبل. حيّاها ثم يادوها قائلاً:

«أعتقد أنني سأخرج لأتريض قليلاً اليوم. فأنا أشعر بتحسن ملموس.»
«هل أذهب للتريض معك؟»

«كلا، فهم يحتاجون إليك في المدرسة - أنا سعيد لأنك ستذهبن.»
لم تعرف جين ماذا تقول. كلماته الصادقة الهادئة تجعلها عاجزة عن الرد. حينها يتعاطف يوماً بعد يوم لوالدها، إنها تشعر بالندم على السنين التي قضتها بعيدة عنه. ربما كان القدر هو الذي أخر اجتماع الشمل. ربما كان الآن هو الوقت الأفضل لذلك. قالت:
«أرى أنك تبدو أحسن حالاً الآن. إنني سعيدة بذلك.»
«هذا بفضل تأثيرك يا جين. فأنا الآن لذي من أعيش من أجله. لذي من أقول انه ملكي. وأنت كما تمنيت أن تكوني تماماً.»
«شكراً.»

لم تزد على ذلك بعد أن خنقتها مشاعرها ثم قالت:

«علي أن أستمع. فغافن أت بعد قليل.»

ذهبت إلى غرفتها محاولة بلا جدوى لجم دموعها. لا تريد أن يراها غافن على تلك الصورة. وبالفعل عندما سمعت صراخاً على الباب كانت قد تمكنت من قمالك نفسها.

كانا يسيران الآن صوب بورت باتريك. نظر إليها نظرة فضولية وقال:

«هل تشعرين بتحسن في قدمك؟»

«نعم، شكراً»

تبدد الآن ذلك الشعور الغريب الذي أحسّته نحوه يوم الاثنين الماضي، وعادوها التوتر. يبدو أنه أحسن بذلك أيضاً، فبدأ الحديث عن المدرسة بنبرة موضوعية وكأنه يتحدث مع شخص غريب. كان يبدو جذاباً وقد ارتدى قميصاً من الحرير عقده بشرائط حريرية مطرزة بدلاً من الأزرار، تذكرت جين كلمات أن. إن نصف فتيات الجزيرة يسعين وراءه. أحسّت بالسعادة لأنها لم تكن واحدة منهن.

خطر لها خاطر مفاجئ. ترى لماذا طلب منها الذهاب إلى المدرسة، ربما هو يأمل في أن... تصلّت جين في مقعدها بعد أن داهمتها فكرة محيطة. فهي لا تتخدع بالرجال، خاصة المجريون من أمثال غانن. كانت الحالة دورثي تشعر بمتعة دائمة في تحذيرها من أن جميعهم سواسية، يسعون وراء ما يريدون أن يحصلوا عليه. وغانن لا يختلف عن باقي الرجال بل قد يكون أسوأ منهم. فقد اعتاد طوال حياته أن يأخذ ما يريد. وهو يعلم أنه جذاب. وهو يكرهني ورغم ذلك ينظر إليّ أحياناً بطريقة ما، كما أن لمسة يده على ذراعي، اندفعت إلى ذاكرتها الآن كل الأشياء الصغيرة التي لم تكن تعني لها شيئاً.

«هل هناك ما يزعجك؟»

التفتت نحوه قائلة:

«لا... لا»

لم تقو عينها على مواجهة عينيه خوفاً من أن يقرأ أفكارها.

كم كانت حقا. قلّمت في مقعدها وقتت لو لم تحضر معه. كان عليها أن ترفض.

«صرت هادئة جداً»

«كنت أفكر»

هدأت الآن خفقات قلبها السريعة، يجب أن تتمالك نفسها وإلا فماذا يبقى لها؟

بعد لحظات وصلا إلى المحل. كان كل شيء هادئاً وكأن المحل مهجور. تمكنت أخيراً من أن تتسامل بنبرة عادية وهما في المصعد: «في أية ساعة يفتح المحل أبوابه»

«يفتح أبوابه اليوم الساعة التاسعة والنصف. في وسعك أن تلقي نظرة حولك»

أحسّت بالراحة عندما توقف المصعد، وقادها عبر قسم ثياب السيدات الذي كان يسوده هدوء شامل وقد تمت تغطية الأزياء الخشبية المنتصبة كأشباح سجيّة تنتظر الحرية.

اخترق غانن الصمت قائلاً:

«سأحضر أولاً الشرائط المطرزة الحريرية»

أخذت جين تتجول وسط الرفوف المليئة بالبضائع ثم قالت:

«من الصعب اختيار المطلوب وسط هذه المجموعة الكبيرة»

«دعيني أساعدك. فأتا أعرف تماماً ما تريدين»

قدم لها بعض الشرائط المطرزة الحريرية قائلاً:

«والآن ماذا تريدين تحتها؟ اللون الوردي أم الأزرق أم الأصفر؟»

«أرني هذا اللون الأصفر. هل يمكنني أن أراه جنباً إلى جنب مع الشرائط كانت الشرائط رقيقة شفافة تكاد تكون عاجية اللون وقد اكتمل منظرها عندما وضع تحتها الحرير الأصفر اللامع. تنفست جين

الصعداء وقالت:

«نعم أعتقد أن هذا هو ما أريد.»

«جربيه عليك أمام المرأة.»

كانت جين تراقبه وهو يلتقط ثنابا القماش الحريري والأشرطة.

جذب القماش الحريري قائلاً:

«أمسكي هذا وضعيه على جسمك.»

كانت جين تشعر بأحاسيس غريب وقد شعرت بأنها تكاد تترج.

امتثلت لكلياته دون أن تنبى بينت شفة. أحسّت وكأن طوقاً محكماً

يشدد عليها الخناق. انحنى والتقط الشرائط الرقيقة:

«احترسي يجب ألا...»

«أنا أعرف ماذا أفعل.»

جاء صوته هادئاً. كانت خفقات قلب جين عالية. كانت تشعر بقلبيها

وهو يخفق مرتطهاً بضلعها عندما استقام غافن ورفع الشرائط

المطرزة بعناية فائقة ووضعها عليها. كانت يدها الآن تسان عنقها

وخصوصاً وهو يحاول أن يريح الشرائط الحريريّة حول جسدها. كان

هناك قدر من الحذر في لمسته وبرغم ذلك أحسّت وكأنها في حاجة إلى

الفرار. أخذت تتحرك في قلق فيأدرها قائلاً:

«اهدني. لماذا كل هذا التوتر؟»

رأت صورتها المنعكسة في المرأة. كان غافن واقفاً وراءها وقد

وضع يديه على كتفيها بينما تدلى القماش الحريري والشرائط فوق

جسدها في رشافة وجمال. اكتشفت أنها لم تكن تنظر إلى صورتها في

المرأة. بل إلى صورته هو. كان قريباً منها إلى حد أنها أحسّت بحرارته

وتنشفت العطر الخفيف الخاص بالرجال المنبعث من كريم ما بعد

الحلاقة. فتقلص حلقها حتى جاء صوتها أجش وهي تقول:

«هذا رائع الجمال. أعتقد أنني...»

«نعم إنه رائع الجمال.»

كان هناك شيء في صوته جعلها ترتعش وتحت أن يبتعد عنها.

استدارت نصف استدارة فتراجع للخلف وانزلت الشرائط قليلاً.

أمسك بها قائلاً:

«سأحجزها لك وأسلمها لميغان.»

«شكراً.»

لم تفو جين على النظر إليه. كانت تشعر وكأن رأسها سيفجر من

التوتر الذي عاد يسيطر على المكان.

«هل أنت مستعدة للذهاب؟»

«نعم.»

كان هناك قدر من الغرابة في سلوكه أثار قلقها كان يبدو وكأنه

غاضب. ماذا فعلت؟

في طريقها إلى المدرسة أحسّت جين يآلم في رأسها. لم يكن هناك

ما تستطيع عمله. يبدو أن غافن سارح في عالمه الخاص. كان يقود

السيارة بسرعة، ولم ينظر إليها ولو نظرة عابرة. قبضت بأصابعها على

حقيبتها في تعاسة. كان يجب ألا توافق أن تحضر معه. رفعت يدها إلى

جبهتها المشتعلة محاولة وقف ذلك الألم النابض. نظر إليها وقال بلا

مبالاة:

«ماذا هناك؟»

«عندي صداع قاتل، لكن لا تدع الأمر يشغلك».

«هناك أقرص مسكنة في المدرسة ذكريني أن أطلبها لك».

«أنزلني أمام المدرسة. وأنا أطلبها».

«كنت أرد أن أدخل معك، لكن لديّ كثيراً من العمل اليوم. سأمر

بالطبع لأخذك في الساعة الرابعة».

«ماك يمكنه أن يمر علي».

«كلا، فلديه حالة ولادة في وسط المدينة».

زمت جين شفيتها. إنه يبدو وكأنه نادم على إحضارها:

«أسفة لأنتي لا أعرف أن أقود السيارة انك تضطر لتغيير برامجك

بسببي».

«أنا سعيد بمساعدتك لنا. وأؤكد لك أن نقلك بالسيارة لا يمثل أية

مشكلة بالنسبة إلي».

«أحقاً؟»

أشاحت بوجهها بعيداً ونظرت إلى المروج الخضراء. كانت تحسن

بوخزة ألم في صدرها. دفعت باب السيارة قبل أن يتوقف تماماً أمام

المدرسة ثم هبطت وقالت دون أن تنظر وراءها:

«إلى اللقاء».

سمعت صوت المحرك وقد انبعثت فيه الحياة من جديد كما سمعت

صوت نغير السيارة، لكنها لم تقو على النظر إلى الراء. تلاشى الصوت

متباعداً فتوقفت جين لتلتقط أنفاسها. لم تكن تعرف لماذا ينتابها

هذا الشعور الآن، لكن لسبب ما كانت تحسن برغبة في البكاء. أخذت

نفساً عميقاً وعادت السير من جديد لتسمع أصوات الأطفال. هنا

العودة إلى الطبيعة هنا يمكن أن تجد نفسها على سجيبتها. فهي متأكدة

من شيء واحد. انها لا تستطيع البقاء مع غافن.

مر الوقت سريعاً وجلست آن وجين أثناء فترة الراحة تتحدثان

عن حفلة الزفاف. قالت آن أن شيرلي ستزوج مواطناً استرالياً

وستعيش في بيرث، وقالت:

«أنا واثقة من أنكما ستسجمان معاً يا جين. للأسف أنها سترحل يوم

السمت. ليتك حضرت قبل الآن».

روت جين أسباب مجيئها متأخرة بينما جلست آن تصفي في

صفت وقد علا وجهها تعبير غاضب ثم صاحت:

«يا للهول! انه لأمر رائع أن تكتشفي وجود والدك بهذه الطريقة. أن

أباك أصبح شخصاً مختلفاً منذ مجيئك».

مرة أخرى وجدت جين نفسها تفكر في أبيها. أدركت مع كل يوم

ير أنها تنتمي إليه. أما بالنسبة إلى الخالة دورثي فهي ستبحث عن

وسيلة لتعوضها ما بذلت حتى لو كان ذلك يعني البحث عن عمل،

فهذا الأمر يجب أن تتحمله وحدها دون مساعدة من أبيها. حينئذ فقط

تتخلص من ذلك الشعور بالذنب الذي ينتابها من حين إلى آخر لتركها

خالتها وحيدة. سألت آن عن امكان العثور على فرصة للعمل في

الجزيرة وشرحت لها الاسباب واصرارها على عدم اللجوء إلى مساعدة

والدها فيادرتها أن قائلة وهي تربت على ذراعها:

«أنا أحترم حبك للاعتداد على النفس، ولكن ألم يكن في نيتك الالتحاق

بكلية المعلمات».

«نعم، لكن تخرجي سيستغرق ثلاث سنوات. أنا أرغب في العمل في

أخذ المكاتب أو في أي مكان»

«في وسعك أن تعلمي هنا في المدرسة. فلماذا لا تسألين غافن إذا كان ذلك ممكناً»

«لا أعلم، سأفكر في الأمر»

قرب يوم الزفاف. نهضت جين مبكرة وذهبت إلى منزل ميغان لوضع اللمسات الأخيرة لثوبها.

منزل ميغان يشبه كثيراً منزل جون، كان فسيحاً وأبيض، وأثاثه هادي. وقد تناثرت السجاجيد على أرضيته والأزهار في كل غرفة، كل ما في المنزل يدل على أن ساكنته امرأة. فادتها ميغان إلى غرفة الحياكة فسهقت جين لرؤية الثوب ثم صاحت قائلة:

«انه رائع يا ميغان»

«تعال، جريه، وبعدئذ سأريك ما لدي من قبعات»

«كيف يمكنني أن أرذ لك هذا الجميل؟»

«اعتبريني فقط أملك الروحية»

تضاحكت الاثنتان ثم بدأتا التجربة الأخيرة للثوب.

لم تكن جين قد رأت كنيسة الجزيرة، لكنها تخيلتها ذات طابع إنكليزي بحت. لذلك كانت مفاجأة لها عندما رأت ذلك المبنى الأبيض البسيط وسقفه القرميدي الأخضر يلمع تحت أشعة الشمس. وينبعث منه رنين الأجراس القوي.

عمر جين احساس بالتهجل لحظة وصولها هي ووالدها وميغان وكولن. فستان بين أن تنظر إلى نفسك في المرأة وتشعر بأنك في مظهر لائق وبين مواجهة عشرات من الأشخاص الغرباء، جميعهم يتسعون

بالأناقة والثقة بالنفس. أحست فجأة وكأن ادراكها متيقظ لكل شيء، وكأن حواسها قد شحذت بلا استيعاب كل ما يدور حولها. اخذت تتحدث وتبتسم بخجل لأصدقاء أسرة موراي. قم انسحبت هي وميغان إلى ركن هادي، وسألته جين بفضول:

«من تكون الفتاة هناك؟»

أشارت جين إلى فتاة ذات شعر داكن رائعة الجمال.

«هذه هي كاي والاس. إنها على علاقة متينة مع غافن.

إذاً هذه هي الفتاة التي تحدثت عنها أن أحست جين بألم حاد ولكنها لم تدرك سببه.

تفرق الحشد إذ بدأ الجميع يدخلون الكنيسة. خفتت الترتبة لينبعث صوت الأرغن الرخيم. لم تكن جين قد رأت غافن بعد. بدأت تنظر حولها، كانت الجدران ذات لون أصفر شاحب والسقف ذا عوارض خشبية داكنة، في المقدمة جلس رجلان، أحدهما كان شخصاً غريباً، أما الثاني فكان ظهره مألوفاً بشكل محير.

حدثت جين نفسها قائلة، بالقطع كان يجب أن أعرف - غافن هو شاهد العرس. استدار قليلاً ليتحدث إلى زميله وقد تباین بحدة، الشكل الجانبي لقسمات وجهه مع الحائط الأصفر الشاحب. كان وسيماً للغاية فأحست جين وكأن قلبها يترنح فأشاحت ببصرها بعيداً خشية أن يراها أحد تحملى فيه خاصة كولن الذي كان يجلس جوارها.

في اللحظة التالية بدأ الأرغن يعزف لحن محيي العروس. المعروف. تحولت الأنظار صوب العروس. إن هناك شيئاً مشيراً للعواطف في طقوس الزواج تلك. حدثت جين نفسها لكنها وجدت عينيها

أحد المكاتب أو في أي مكان»
«في وسعك أن تعمل هنا في المدرسة. فلماذا لا تسألين غافن إذا كان ذلك ممكناً»

«لا أعلم، سأفكر في الأمر»

قرب يوم الزفاف. نهضت جين مبكرة وذهبت إلى منزل ميغان لوضع اللمسات الأخيرة لثوبها.

منزل ميغان يشبه كثيراً منزل جون، كان فسيحاً وأبيض، وأثاثه هادئ. وقد تناثرت السجاجيد على أرضيته والأزهار في كل غرفة. كل ما في المنزل يدل على أن ساكنته امرأة. فادتها ميغان إلى غرفة الحياكة فشبهت جين لرؤية الثوب ثم صاحت قائلة:

«انه رائع يا ميغان!»

«تعال، جربيه، وبعدها سأريك ما لدي من قبعات»

«كيف يمكنك أن أرى لك هذا الجميل»

«اعتبريني فقط أمك الروحية»

تصاحكت الاثنتان ثم بدأتا التجربة الأخيرة للثوب.

لم تكن جين قد رأت كنيسة الجزيرة، لكنها تخيلتها ذات طابع إنكليزي بحت. لذلك كانت مفاجأة لها عندما رأت ذلك المبنى الأبيض البسيط وسقفه القرميدي الأخضر يلمع تحت أشعة الشمس. وينبعث منه رنين الأجراس القوي.

غمر جين احساس بالتحجل لحظة وصولها هي ووالدها وميغان وكولن. فشتان بين أن تنظر إلى نفسك في المرآة وتشعر بأنك في مظهر لائق وبين مواجهة عشرات من الأشخاص الغرباء، جميعهم يتسمون

بالأناقة والثقة بالنفس. أحست فجأة وكأن ادراكها متيقظ لكل شيء، وكأن حواسها قد شحذت بلا استيعاب كل ما يدور حولها. أخذت تتحدث وتبسم بخجل لأصدقاء أسرة موراي. ثم انسحبت هي وميغان إلى ركن هادئ وسألتهما جين بفضول:

«من تكون الفتاة هناك؟»

أشارت جين إلى فتاة ذات شعر داكن رائعة الجمال.

«هذه هي كاي والاس. إنها على علاقة متينة مع غافن»

إذاً هذه هي الفتاة التي تحدثت عنها أن أحست جين بألم حاد ولكنها لم تدرك سببه.

تفرق الحشد إذ بدأ الجميع يدخلون الكنيسة. خفتت الثرثرة لينبعث صوت الأرغن الرخيم. لم تكن جين قد رأت غافن بعد. بدأت تنظر حولها، كانت الجدران ذات لون أصفر شاحب والسقف ذا عوارض خشبية داكنة، في المقدمة جلس رجلان، أحدهما كان شخصاً غريباً، أما الثاني فكان ظهره مألوفاً بشكل محير.

حدثت جين نفسها قائلة، بالقطع كان يجب أن أعرف - غافن هو شاهد العريس. استدار قليلاً ليتحدث إلى زميله وقد تباين بحدّة، الشكل الجانبي لقسمات وجهه مع الحائط الأصفر الشاحب. كان وسيماً للغاية فأحست جين وكأن قلبها يترنح فأشاحت ببصرها بعيداً خشية أن يراها أحد تحملي فيده خاصة كولن الذي كان يجلس جوارها.

في اللحظة التالية بدأ الأرغن يعزف لحن محيي العروس. المعروف. تحولت الأنظار صوب العروس. إن هناك شيئاً مشيراً للعواطف في طقوس الزواج تلك. حدثت جين نفسها لكنها وجدت عينيها

مشبتين، لا على العروس والعريس، بل على غافن، لم ينظر وراءه ولا مرة واحدة، لم يرها، لكن جين أدركت أنه يعي تماماً أنها تنظر اليه. وبعد مضي دقائق، غجاءت تلك اللحظة المصيرية. حدث ذلك مع انتهاء طقوس الزواج، فقد استدار غافن للحظات، والتفت عيناه عني جين. كانت عيناه داكنتين، لاحت فيهما ظلال المسافة الفاصلة بينهما. لكن نظرات الاثنين في تلك اللحظة كانت وكأنهما كانا وحدهما في الكنيسة. أشاحت جين بوجهها بعيداً، مرتعشة بل إنها أحست بالدوار وغير قادرة على تحمل المزيد. عرفت الآن، إنها تحب غافن غرانت.

توجه المدعوون إلى الحفلة التي اقامتها أسرة موراي في منزلهما. أخذت جين تشر مع كولن و ميغان والدتها، أملة إلا تفضحها حركاتها. تقدم غافن نحوهم محدثاً ومعه كاي فشعرت جين بالآلم بينما كانت كاي تنأبط ذراع غافن مجرد لمسة خفيفة كلمسة الفراشة، وهي تبسم لجين معربة لها عن إعجابها بشوئها. استجمعت جين شجاعته من مكان دفين فبادلتها الابتسام وتحدثت بطريقة طبيعية، بينما كان كولن يحيطها بذراعه في خفة. لم تقو جين على مبادلة غافن النظر. وبدلاً من ذلك أخذت تراقب باعجاب جمال وجه كاي الهادي بتعبيره الصافي وعينيها ذات الأهداب الكثيفة وهما ترمقانهما بطريقة صادقة ودودة. لم يكن فيها ما ينم عن الخداع مثل سارة، كانت هناك ثقة كاملة بالذات جعلت جين تحس وكأنها صبية في طور الدراسة الثانوية. غير أن جين لم تكن تدرك كم كانت بدورها تبدو نضرة فاتنة في ثوبها وكم أضفى

عليها الحياء مسحة من البراءة.

كانت تجيب في هدوء على أسئلة كاي حول انطباعاتها عن الجزيرة وعندما تدخل غافن في الحديث وذكر لها خدماتها للمدرسة، تبادلوا النظرات، ليتهما تستطيع أن تتصرف تصرفاً طبيعياً، بادرها قائلاً:

«أريد أن أحدث معك في شأن المدرسة، قد لا يكون هنا المكان المناسب. تحدثت طويلاً مع آن موراي».

فقدت دقات قلب جين انتظامها. ترى ماذا قالت له أن؟ يا لي من حمقاء! كان يجب أن انبهها ألا تقول شيئاً. ابتسمت أخيراً قائلة: «في وقت آخر. اسمحوا لي الآن. يجب أن أذهب لأرى ما إذا كان أبي يريد شيئاً».

توارت جين ومعها كولن الذي أمسك بذراعها هامساً بحدّة: «قولي لي، ماذا بينك وبين غافن؟» «ماذا تقصد؟»

«أنا لا أعرف! إنه مجرد شعور. عندما تجتمعان كأن هناك شرارات خفية تتطاير في كل اتجاه، لا أعني اليوم فقد. فقد لاحظت ذلك من قبل.» «خيالك خصب».

ردت عليه جين بسرعة وهي تلوح من بعد إلى أبيها الذي كان يجلس مع ميغان و ماك تحت جرة ظليلة في الحديقة. يجب أن تكون أكثر حرصاً ولا تدع مشاعرها تنكشف وإلا كانت النتيجة مروعة، لا يمكن تكهنها. وفي محاولة يائسة تمكنت من أن تقول:

«في الواقع إن هناك نوعاً من عدم الاستلطاف بيتنا، هذا هو كل ما في

الأمر ان هذا يحدث أحياناً، مجرد تعارض في الشخصيات.»
«ليس الأمر بهذه الأهمية»

تأبط ذراعها وانضما الى المدعوين.

بدأ الرقص فوق المروج الخضراء. عقدت جين مقارنة بين هذه
الأمسية وحفلة سارة، فالجو كان مختلفاً تماماً. كانت سارة هذه
الليلة في الحفلة وقد نجح غافن في تقسيم وقته ببراعة بين سارة
وكاي. انه يملك كل شيء، المظهر الحسن والثراء وفتاتين جذابتين. إنه
بارع حقاً - وهي بكل غبائها وقعت في شركه. أحسّت بألم حاد
كالسكين لرؤيته يرقص مع كاي، حاولت في بأس أن تسترخي بين
ذراعي كولن. يا ليتها كانت تحس ولو بذرة عاطفة تجاه كولن، يا
ليتها كانت ولكن ما من فائدة.

رقصت جين مع ماك الذي قال:

«وافق أبوك على السفر الى سيلان لعرض نفسه على طبيب
اختصاصي. كل هذا كان بتأثيرك، فقد أقنعتك بأن يفعل ذلك من
أجلك.»

«ماك، أنا سعيدة للغاية. متى سيذهب؟»

«يوم الثلاثاء وسأذهب معه.»

«هل أذهب معكم أيضاً؟»

خفت حدة الموسيقى وقد وقفا في رقعة ظليلة بعيداً عن الفوانيس
التي علقت عبر الحديقة. حك ذقنه مفكراً ثم قال:

«لا أعرف يا جين، فغافن هو الذي سيأخذنا بطائرته.»

وقبل أن ينهي جملة، رأت الرجل الذي ليس في وسعها أن تتحاشاه

قادماً وحده نحوها فبادره ماك:

«هل يمكن أن تأتي جين معنا الى سيلان؟»

نظر اليها غافن في صمت وأحسّت إنها ترتعش كمن ارتكب خطأ.

ثم قال:

«سبقكم شخص آخر وطلب مني الطلب نفسه.»

تردد قليلاً ثم قال:

«ماك، هل يمكنك أن أتحدث مع جين على انفراد؟»

«بالتأكيد. الى اللقاء»

تأبط غافن ذراع جين وقادها الى رقعة داكنة من ظلال

الأشجار وقال في رقعة:

«أريد فقط أن أتحدث معك. دعينا نجلس هنا.»

أشار الى مقعد تحت شجرة، اتجهت اليه جين وهي سعيدة بفرصة

الجلوس قبل أن تخونها قدمها.

«أبلغتني أن بأنك تريد عملًا.»

رفع يده طالباً منها الهدوء أمام شهقتها ثم قال:

«أنا أسف، دعيني استخدم عبارة أخرى. هل تقبلين بالعمل في المدرسة

بشكل منتظم في مقابل راتب مناسب؟ أنت تنوين البقاء هنا، أليس

كذلك؟»

ثبتت جين نظرها على يديها وقد شبكتها في توتر. كيف يمكنها أن

تفعل ذلك الآن؟ كانت لديها مخاوف من العمل في مدرسة غافن،

والآن زادت تلك المخاوف بعدما أدركت أنها تحبه.

«لا أعرف.»

«لا تعرفين ماذا؟ لا تعرفين ما إذا كنت ستبقين في سارامثكا، أم لا تعرفين ما إذا كنت تؤذين العمل في المدرسة؟»

أسرعت ضربات قلب جين، فقد غمرها احساس بالطمأنينة وهي قريبة منه. ما هذا التبدل المفاجيء في نظرتها اليه؟ قالت:
«كأنت مجرد فكرة، فأنا لا أريد أن...»

كانت على وشك أن تقول «لا أريد أن أعمل لديك» ولكن الكلمات توقفت.

أطلق ضحكة صغيرة وقال:

«لا تؤذين أن تعلمي في مشروع يخصني. أليس كذلك؟»

ابتلعت ريقها بصعوبة قائلة:

«هذه هي الحقيقة ما دمت قللتها بنفسك.»

كانت تعرف أنه غضب. نظر إليها بعينين قائمتين قائلاً:

«شكراً لصراحتك. هل لي أن أسأل لماذا؟»

«لا أعرف.»

لم تقو على الاشاحة بعينيها بعيداً، فقد كانت عيناه مركبتين عليهما
«نعم تعرفين. ماذا هناك؟ أنت خائفة من أن تقدمي على أي عمل يؤذيني. أليس كذلك؟»

شيء ما في صوته فجّر كل توترها العصبي. لماذا أخضع لهذا الارهاب؟ لماذا أصبح كالآخرين؟ ليس لدي ما أخشاه. انه يعتبرني طفلة... فما من شيء على الاطلاق يقدر أن يجعله ينظر الي كما ينظر الى سارة.

«أنا لا أود أن أعمل معك لأنك تتصور إن في امكانك أن تصدر

الأوامر للجميع لكني لن أسمع لك بذلك.»

«إما أنك تمزحين وإما أنك جنت، أنا أصدر الأوامر للجميع. متى حصل ذلك؟»

أضفت نبرته الساخرة برودة على كلماته. همت جين بالوصوف. لكنه بحركة عنيفة أجلسها مكانها قائلاً:

«اجلسي. أنا فعلاً أحب أن أمرك أحياناً اللعنة على هذا التفكير لماذا تدخلين دائماً في صراع معي؟»

«أنا؟ كيف كان ذلك؟»

«بالطريقة الأنوية الماكرة، وإضافة الى ذلك...»

«أنا لن أبقي هنا لأسمع أهاناتك.»

نهضت وضربت الأرض بقدمها بشدة وقالت:

«كيف تجرؤ أن تتحدث معي بهذا الشكل، عد الى صديقاتك وأنا...»

«وأنت تعودين الى صديقك كولن.»

وبعد ما نهض اضاف:

«أنت لا تقبلين الاهانة، بينما تسمحين بتوزيعها على الآخرين، لماذا لا

تقدمين على صفعي؟»

«لا تستفزني.»

تطلعت بعينين قلقتين نحو المنزل فبادرها قائلاً:

«لم يلاحظ أحد شيئاً. لكن استعري، فأنت تحققيين تقدماً.»

«أنا أكرهك! هل تسمعين. أكرهك!»

«تكرهينني؟ أذن دعينا نرى ما اذا كنت تكرهين هذا أيضاً.»

جذبها بقوة نحوه وقد أحاطتها ذراعاه بقبضة قوية ساحقة جعلتها لا

تقوى على الحركة. حاولت ان تقاوم لكن فشلت. أبعدها عنه وقال في حدة:

«لن أعتذر حتى ولو اعتذرت فان موقعي لن يكون حقيقياً»

صاحت وهي ترتعش من هول الصدمة:

«أهكذا تحارب النساء؟»

«نعم. اذا أردت هذا التفسير»

«أنت حقير، كزبه»

«أنا أعرف ذلك، ولذلك فلن تستغربي إذا كان سلوكي سيئاً»

مع هذه الكلمات استدار عائداً الى المنزل بينما وفت جين وحدها،

ثم سمعت حركة مجاورة فاستدارت لترى كولن أمامها. كان في

حالة هياج. أحست بأنها على وشك البكاء رمدت يدها لتلمس ذراعه

فأقصاها عنه واستدار بدوره عائداً الى المنزل. أغلقت جين

عينيهما. أما لهذا الكابوس من نهاية؟

٩ - العاصفة!

استعادت جين وهي في فراشها أحداث ليلة أمس وتراعى لها ما

شاهدته عند عودتها الى منزل أسرة موراي. كان غافن يراقص

سارة وقد تقاربا بينما كان كولن يمسك بكاي بين

ذراعيه. قفزت جين جالسة في فراشها: لا فائدة من الاسترسال في

التأمل. عليها الآن أن تنهض وتضي اليوم مع أبيها في هدوء.

بادرها قائلاً وهما جالسان في الفناء:

«هل استمتعت أمس؟»

«أنا سعيدة بك يا أبي. علمت أنك ستعرض نفسك على صديق ماك

هذا الأسبوع»

«نعم، أجبرني ماك على ذلك»

«أنا سعيدة بذلك يا أبي. أنت تبدو أفضل مما كنت يوم وصولي الى

سارامنكا»

مدت يدها وأمسكت بيده قائلة:

«هل يمكنك أن أعيش معك هنا؟»

لم تكن تقصد أن تقول ذلك، لكن شيئاً ما دفع تلك الكلمات الى
فمها.

«جين، إبنتي العزيزة اتريدين البقاء حقاً. لم أعد في حاجة الى طبيب ما
دمت ستكونين الى جانبي.»

صاحت جين وهي تضحك وتبكي في آن واحد:

«بل يجب أن تذهب يا أبي.»

«لا تقلقي كنت أمزح فقط والآن سأذهب لأرى إلن.»

انفردت جين بنفسها وراحت تفكر: ألزمت نفسي بالبقاء وعليّ أن
أتعلم كيف اواجه الأمور، عليّ أن أتعلم كيف أضع على جلدي طبقة
ثانية تحميني من سخرية غافن. أنا أعرف أنني اخترت القرار
الصواب فأبي وليس غافن هو من يهمني.

حضر غافن و ماك صباح الثلاثاء ليصحبها والدها الى المطار.
كانت سارة أيضاً في السيارة. حاولت جين ألا تنظر الى غافن
الذي حياها عن بعد وكأنه يأبى الكلام.

وهكذا رحلوا وتركوها واقفة هي وإلن على السلم. داخلها فور
إختفائهم شعور بالفراغ. لم يمر على وجودها في سارامسكا سوى
أسبوعين وهي تشعر الآن بأنها ستفتقد الرجل الحنون، والدها.

بقي في خاطرها وجه غافن عندما كان ينظر اليها منذ لحظات
ليعتصر قلبها. كانت نظرتة رافضة حادة. حاولت ألا تذكر تلك البسمة
الخفيفة المنتصرة التي علت شفتي سارة وهي تلوح من السيارة.

صحبته ميغان في الثامنة صباحاً الى المدرسة ونجحت جين
بعد جهد في تنحية غافن و سارة عن خاطرها كما تجهت ميغان

بمهارة الحديث عن غافن أو كولن. في ذلك المساء اتصل بها أبوها
تليفونياً. كان صوته مليئاً بالحيوية وأبلغها أن الطبيب الاختصاصي
طلب منه البقاء ليلة أخرى وأكد لها أنه سيتصل بها مرة أخرى مساء
الغد للاطمئنان عليها.

أمضت جين اليوم التالي مع ميغان في شراء بعض الحاجيات من
بورت باتريك ثم تناولتا القهوة المشبعة في منزل ميغان. غادرت
جين منزل ميغان في الخامسة تقريباً وأصرّت على أن تعود سيراً
على القدمين. للمرة الاولى أحست بوحدة شديدة. فور عودتها الى المنزل.
صاحت منادية:

«إلن، لقد عدت.»

لا جواب. الصمت مخيم على المنزل. أحست جين بالخيبة دخلت
الى المطبخ وهي ترجح أن تجد مديرة المنزل هناك. بدلاً من ذلك وجدت
مذكورة من إلن تخبرها فيها بأن اختها مريضة وقد ذهبت لترعى
أولادها وانها ستعود الليلة.

لم يكن أمامها إلا أن تحاول الاستفادة من وحدتها وتلهي نفسها
بأي عمل منتظرة اتصال والدها وعودة إلن. صعدت الى الطابق
الأعلى لتستحم. لبست الشورت وأرخت شعرها وجلست في فناء المنزل
تتصفح بعض كتب والدها. كان الجو هادئاً لا يزعج سكونه سوى
رفرفة جناح طائر يلعب تحت أشعة الشمس. اخترق صوت آخر ذلك
السكون، صوت طائرة، وعندما توقف ساد الهدوء من جديد. انغمست
جين في القراءة لتفريق فجأة على صوت الامطار تهطل. أخذت ترقب
قطرات المطر الكبيرة تتناثر أمامها بينما تبدل الجو وازداد برودة وفتت

الآن وسط الحديقة وقد رفعت وجهها لتحس قطرات الماء على وجنتيها.
المطر هنا يختلف تماماً عن المطر في انكلترا. كانت القطرات كبيرة،
ناعمة، ومهدئة بشكل غريب. بعد لحظات أدركت أنها ستبتل فاحتمت
مرة أخرى بالمظلة ترقب المطر. سمعت رنين التليفون فدخلت بسرعة.
كان الخط يقطع من على بعد وجاء صوت أبيها ضعيفاً:

«جين هل تسمعين؟ ذهبت الى الطبيب وهو يعتقد أن مرضي عصبي
في الاصل. واختفى صوته تماماً فقالت جين:
«أكاد لا اسمعك. لكنني سعيدة بهذه الأنباء.»

تعالى الطقطقة في الخط التليفوني فاضطرت جين أن تبعد
الساعة ثم صاحت:

«لا أستطيع أن أسمعك.»

«سأحاول أن أتصل بك ثانية، الى اللقاء يا جين.»

«الى اللقاء يا أبي.»

ماذا اراد أن يقول. لا يهم. الأمر الأساسي هو أن الطبيب يرى أن
مرض أبيها ليس خطيراً. وشعرت بالراحة. أشعلت النور الذي أضاف
بعداً جديداً الى الامطار المتساقطة فقد عكستها وبدت كجدار فضي
لامع يتوهج ويتحرك.

تغيرت طبيعة المطر بعد نصف ساعة. فقد هدأت قليلاً. رفعت
جين رأسها وقد ظنت أن المطر أوشك على التوقف لتسمع فجأة
صوتاً مدوياً. أضاء البرق السماء كلها وفي الوقت نفسه جاء صوت
الرعد يفوق كل ما سبقه من أصوات، كان صوتاً عنيفاً يتردد صدى في
كل مكان. أحست بضربات قلبها تسرع، تخاف من العواصف منذ أن

رأت في طفولتها شجرة تنقسم الى نصفين بقوة البرق. هزعت الى
الداخل وأنزلت الستائر. لكنها وجدت نفسها ترتعش في انتظار عودة
البرق. أحست جين بالوحدة والخوف كما لم تحس بها من قبل
وبعد لحظات سمعت نباح كلب وكأنه نواح، إنه كارلو! وسط مخاوفها
تولد لديها نوع من الشجاعة. تخيلت وجه كارلو وهو ينظر اليها
وقدّرت أن تفعل شيئاً من أجله. ركضت جين نحو الباب الخلفي وقد
تضاءل خوفها بعد أن أشتد قلقها على كارلو.

زلت قدم جين وانزلت مراراً عبر الممر الموصل بين الباب الخلفي
والأشجار الكثيفة التي تفصل بين منزل أبيها ومنزل غافن. بدت
تلك المنطقة كمكان مهجور وقفت تحتמי بالأشجار ثم ما لبثت ان
رأت شبحاً أسود يتحرك نحوها فصرخت في نوبة ذعر وتلاحقت
ومضات البرق لتري جين من خلالها رجلاً يتقدم نحوها رافعاً
يديه. سمعت من يناديها: جين اختلط عليها كل شيء: العالم والمطر
والظلمة فسقطت مغشياً عليها بين ذراعيه.

فتحت جين عينيها لتجد غافن قربها فاجتاحها شعور بالذعر
لا علاقة له بالعاصفة. قفزت جالسة، تلفت حولها وهي تتحسس ثيابها
المبتلة وقد التصقت بجسدها:

«نحن في منزلي يا جين.»

رأت كارلو جالساً في جوارها وقد علا وجهه تعبير قلق وكأنه فهم
كل شيء كما رأت غافن بوضوح الآن. كان شعره لامعاً وقد بلله
المطر والتصقت ثيابه المبتلة بجسده. قفزت من مكانها وقد رأت البرق
يتوهج قرب النافذة لتسمع صوت انفجار صغير أعقبه انقطاع التيار

الكهربائي. سمعت زحجرة الرعد وكأنه أت من السقف فقفزت
«كل شيء على ما يرام سأحضر مشعلاً»
حاولت التخلص من قبضته قائلة:

«لن أبقى هنا معك»

«لا تكوني حمقاء، ستمكثين هنا على الأقل حتى تنتهي هذه العاصفة»
كانت الغرفة حالكة الظلام. استدارت وهي لا ترى شيئاً فتعثرت
باحدى قطع الاثاث، مذبذبة وأمسك بها بقوة وهي تحاول دفعه
بعيداً:

«لا تحاولي الفرار لا ولا تقاومي. اطردي الخوف ولو للحظة واصفي
إلى»

وبحركة مفاجئة جذبها الى الأريكة.

«لماذا جئت الى هنا»

«لأرى ما إذا كان كارلو في مأمن. لم أعرف أنك هنا»

«هل جئت وحدك في مثل هذا الجو، من أجل كلب»

«سمعت ينيح، وخيل إلي أنه خائف. لم أتوقع أن أراك»

«كنت في طريقني لأتفقدك أنت وإلن»

«إلن ذهبت تزور أختها وكنت وحدي»

بدأت ترتعش وكأن احساسها بالصدمة جاء متأخراً.

«يا لك من طفلة مسكينة»

لم يكن هناك أثر للسخرية في صوته، لم تجد سوى الشفقة وهي لا
تحتاج اليها، قلملت وقد أدركت فجأة أن ذراعيه تضغطان عليها بشدة:
«ليس هناك داع لتشعر بالشفقة علي»

ارتجت الغرفة بصوت الرعد، فسقط شيء من قطع الزينة قربها
فارتعدت»

في لحظة الصمت التي أعقبت العاصفة سمعت تردد انفاسه وأحسّت
بيده تقترب من وجهها فهست قائلة:

«أرجوك ان تبعد عني»

«جين، أه لو تعلمين...»

جاء صوته عذبا مرتعشا. توقف ليطوقها بذراعيه ووجدت نفسها
تتجاوب مع ذلك الدفء. تعلقت به لكنه ابعدها قائلاً:

«ما من فائدة يا جين. لم يعد ممكناً استمرار الصراع بيننا. قولي إنك
لا تكرهيني»

تحسّس ذننها ثم ربت على وجنتيها قائلاً:

«أحبك، ايها الصغيرة»

كاد قلبها ينفطر فصاحت وهي لا تصدق:

«قل هذا مرة ثانية»

«أحبك، لم أقل هذه الكلمة لأية امرأة مثلك، لم لا تضحكين، ألا

تجدين هذا مضحكاً للغاية؟»

«لكني لا أصدق. هل هذه دعاية؟»

صدرت منها شهقة باكية.

«جين، حبيبي لا تبكي أرجوك. لا أحتمل رؤيتك وأنت تبكين.

نسيت العاصفة، لم تعد تزعجها الآن. مدّت يدها وتحسّست وجهه
قائلة:

«قلها مرة ثانية»

«أحبك» .

«وأنا أحبك ايضاً، لكنني كنت أعتقد أنك تكرهني».

«كنت أريد أن أكرهك. أتذكرين عندما دخلت بيت أبيك وكنت تعزفين على القيثارة. رأيتك فأحسست للمرة الاولى في حياتي بالخوف. فأنت صغيرة جداً وأنا أكبرك بثلاثة عشرة سنة».

وضع اصبعه على شفتيها ليحبس شهقة ألم وأضاف:

«اسمعيني حتى النهاية يا حبيبتي. تلك الليلة في حفلة سارة كنت أخطط للوصول إليك لكنني تراجعته لأنني أيقنت بأنني أحبك في صدق. ومع ذلك كنت أقاوم فكرة الاعتراف بذلك. ولهذا بدوت لك قاسياً متعجرفاً».

قالت وهي ترمقه بحنان:

«أدركت أنني أحبك في الكنيسة يوم الزفاف. كنت أقاوم هذا الحب بدوري لأنني. اعتقدت بأنك تحب سارة كما يردد الجميع».

«اعرف ما يقوله الناس. لكن الحقيقة هي أنني لم أحب أية امرأة في حياتي. إلى أن جئت انت. وأعرف أنني إنسان أناني إلى أن تعلمت منك أن المال والعمل ليسا كل شيء في الحياة. لقد غيرت حياتي كما غيرت حياة والدك».

توقف برهة ثم وأضاف:

«هل تبقين في سارامنكا وتتزوجيني؟»

«نعم... نعم يا غافن».

خمدت العاصفة واختنق وميض البرق ودوي الرعد وبدأت مرحلة

جديدة في حياة جين و غافن.